

### خصائص يغلب عليها جانب الألفاظ

في القرآن الكريم خصائص امتاز بها من غيره ، وذلك أمر مسلّم ، وقد كانت تلك الخصائص - وما زالت - مشار الإعجاب ، ومصدر الإعجاب من عصر النزول حتى الآن ، وحتى تقوم الساعة .

وقد لحظ العرب الخُلص في عصر النزول ، هذه الخصائص التي بدت لهم فوق ما يحسنون فراحوا - رغم عدائهم للقرآن وصاحبه - يشنون عليه ، ويصفونه بما يستطيعون من أوصاف الجمال والروعة ، وما حديث الوليد ابن المغيرة في وصف القرآن ببعيد عن الأذهان<sup>(١)</sup> .

وفي دراستنا لهذه الخصائص قسمناها - تسهيلاً للضبط - إلى قسمين كبيرين ..

أحدهما : خصائص يغلب عليها جانب الألفاظ - وهو ما ندرسه في هذا الفصل - وليس المراد بغلبة اللفظ طغيانه على المعنى ، بل المراد أن الملحظ فيها إنما يرجع إلى اللفظ ، مع وفاء العبارة بالمعنى على أكمل وجه .  
وذلك مثل فواتح السور<sup>(٢)</sup> ، والتكرار المحكم ، والفواصل بين الآي .

---

(١) نريد بهذه الخصائص أمرين : ما لا وجود له خارج القرآن ، كفواتح السور ، وما له وجود خارج القرآن ، لكنه في القرآن على أكمل وجه ، وأدق تصوير ، فحرى ألا يعتبر ما في سواه ، وذلك كالتكرار المحكم ، وفي كل فإن ما نذكره تمثيل وليس استقصاء ، فكتاب الله لا تنتهي عجائبه .

(٢) تكلم عنها السيوطي في المتشابه : (الإتقان : ١٢-٨/٢) ، والزرکشي في البرهان : ١٦٤/١ .

وثانيهما : خصائص يغلب عليها جانب المعاني ، لأنه الملحوظ فيها مع روعة اللفظ وتوافر مقومات الحسن فيه .

وذلك مثل ثراء معاني اللفظ في القرآن ، اختلاف الأغراض في السورة الواحدة ، دقة النظم بين تراكيبه .

وفي هذا الفصل ندرس الخصائص الآتية :

فواتح سور القرآن - فواصل آي القرآن - ألفاظ القرآن - النغم الصوتي لألفاظ القرآن - التكرار المحكم في القرآن .

## ١ - فواتح السور :

ذكر السيوطي أن ابن أبي الأصبع قد أفرد فواتح السور القرآنية في كتاب سماه « الخواطر السوانح في أسرار الفواتح » . ثم قال : « وأنا أخص هنا ما ذكره مع زوائد من غيره »<sup>(١)</sup> ثم عرض أن فواتح سور القرآن تنحصر في عشرة أصول وهي :

الثناء : مثل : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ و ﴿ تَبَارَكَ ﴾ و ﴿ سُبْحَانَ ﴾ وجاء الثناء فواتح لأربع عشرة سورة .

حروف التهجي : مثل : « ألم » و « حم » وقد جاءت هذه الحروف فواتح لتسع وعشرين سورة سنعرض لها في شيء من التفصيل .

النداء : مثل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ و ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ وقد جاء النداء فواتح لعشر سور : خمس ببناء الرسول ﷺ وهي : الأحزاب ، والطلاق ، والتحريم ، والمزمل ، والمدثر . وخمس ببناء الأمة وهي : النساء ، والمائدة ، والحج ، والحجرات ، والممتحنة .

الخبر : مثل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ و ﴿ أَلْهَنَكُمْ ﴾ وقد جاء الخبر فواتح لثلاث وعشرين سورة من سور القرآن .

(١) انظر : الإتيان في علوم القرآن للسيوطي : ١٠٥/٢ وما بعدها .

القَسَم : مثل . ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ وقد جاء القَسَم فواتح في عشر سور .

الشرط : مثل : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ ﴾ ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ وقد جاء الشرط فواتح لسبع سور ، وسيأتي الحديث عنها في شيء من التفصيل كذلك .  
الأمر : مثل : ﴿ قُلْ أَوْحَى ﴾ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وكان الأمر فواتح لست سور ثنتين من طوال المفصل ، وأربع من قصاره .

الاستفهام : مثل : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ وكان الاستفهام فواتح لست سور أيضًا .

الدعاء : مثل : ﴿ وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ ﴾ ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ وجاء فواتح لثلاث سور .

التعليل : وقد جاء فاتحة لسورة واحدة هي قوله تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ .

هذا .. وقد ذكر السيوطي في نهاية الحديث عن هذه الأصول قوله :

« هكذا جمع أبو شامة قال : وما ذكرناه في قسم الدعاء يجوز أن يذكر مع الخبر ، وكذا الثناء كله خبر إلا « سَبَّحَ » فإنه يدخل في قسم الأمر ، و« سُبْحَانَ » يحتمل الأمر والخبر»<sup>(١)</sup> .

ومعنى هذا أن مرد هذه الأصول نوعان : نوع لا يحتمل توجيهها غير المذكور فيه ، ونوع يمكن التصرف فيه حسب ما بينه .

وليس هذا يعنينا ، إنما الذي أريد ذكره هنا أن الحديث عن هذه الأصول ليس بمستطاع ؛ لأن موضوعها القرآن كله ، ولذلك فإنني أعمد هنا إلى نوعين لأفضل الحديث عنهما وهما : ما كانت فواتحه حروفًا هجائية مقطعة ، ثم ما كانت فواتحه شروطًا .

(١) انظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ص ١٠٦ .

## ● الحروف :

جاءت الحروف الهجائية غير المؤتلفة في كلمات ذات معنى متفق عليه  
وضعا لتسع وعشرين سورة على الوجه الآتي :

( أ ) ما بدئ بحرف واحد ، وهي ثلاث سور :

﴿ صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ (ص:٢٠١)  
(سورة ص - مكية النزول) .

﴿ قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ  
الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ (ق:٢٠١) (سورة ق - مكية النزول) .

﴿ تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِبِعَمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ (القلم:٢٠١)  
(القلم - مكية النزول) .

(ب) ما بدئ بحرفين ، وهو نوعان :

١- ما اختلف فيه حقيقة الحرفين وهو ثلاث سور :

﴿ طه ﴾ ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ (طه:٢٠١) (طه - مكية النزول) .

﴿ طس ﴾ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ (النمل:١) (النمل - مكية  
النزول) .

﴿ يس ﴾ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ (يس:١-٣) (يس -  
مكية النزول) .

٢- ما اتحد فيه حقيقة الحرفين ، وهو ست سور هي :

﴿ حم ﴾ ﴿١﴾ نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ (غافر:١) (غافر - مكية  
النزول) .

﴿ حم ﴾ ﴿١﴾ نَزِيلٌ مِنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ (فصلت:١) (فصلت - مكية  
النزول) .

﴿ حَمَّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾  
(الزخرف: ١-٣) (الزخرف - مكية النزول) .

﴿ حَمَّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾  
(الدخان: ١-٣) (الدخان - مكية النزول) .

﴿ حَمَّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (الجاثية: ٢٠١) (الجاثية - مكية النزول) .

﴿ حَمَّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴾ (الأحقاف: ١-٣) (الأحقاف - مكية النزول) .

(ج) ما بدئ بثلاثة أحرف . وهو ثلاثة أقسام بالنسبة لحقيقة الحروف المفتوح بها :

١- « ألم » وجاءت فاتحة لست سور :

﴿ التَّوْحِيدِ ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۚ فِيهِ ۗ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ٢٠١) (البقرة - مدنية النزول) .

﴿ التَّوْحِيدِ ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (آل عمران: ٢٠١) (آل عمران - مدنية النزول) .

﴿ التَّوْحِيدِ ۝ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (العنكبوت: ٢٠١) (العنكبوت - مكية النزول) .

﴿ التَّوْحِيدِ ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ (الروم: ٢٠١) (الروم - مكية النزول) .

﴿ التَّوْحِيدِ ۝ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ (لقمان: ٢٠١) (لقمان - مكية النزول) .

﴿ التَّوْحِيدِ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (السجدة: ٢٠١) (السجدة - مكية النزول) .

٢- «الر» وجاءت فاتحة لخمس سور هي :

﴿الر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (يونس:١) (يونس - مكية النزول) .

﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:١)  
(هود - مكية النزول) .

﴿الر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (يوسف:١) (يوسف - مكية النزول) .

﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾  
(إبراهيم:١) (إبراهيم - مكية النزول) .

﴿الر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ﴾ (الحجر:١) (الحجر - مكية  
النزول) .

٣- «طسم» وجاءت فاتحة لسورتين :

﴿طسّم ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (الشعراء:٢٠١) (الشعراء - مكية  
النزول) .

﴿طسّم ﴿٢﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (القصص:٢٠١) (القصص - مكية  
النزول) .

(د) ما بدئ بأربعة أحرف وهو سورتان كذلك :

﴿المص ﴿١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾  
(الأعراف:٢٠١) (الأعراف - مكية النزول) .

﴿المرء تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ (الرعد:١)  
(الرعد - مكية النزول) .

(هـ) ما بدئ بخمسة أحرف وهو - كذلك - سورتان :

﴿كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرٌ رَّحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَّرِيًّا﴾ (مريم:٢٠١) (مريم -  
مكية النزول) .

﴿ حَمْدٌ ﴿ عَسَقٌ ﴿ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ  
الْحَكِيمُ ﴾ (الشورى: ١-٣) (الشورى - مكة النزول) .

ويسير من النظر يبيِّن أن الحروف التي بدأت بها هذه السور ، تبلغ - بعد  
حذف المكرر - أربعة عشر حرفاً هي :

ا - ح - ر - س - ص - ط - ع - ق - ك - ل - م - ن - ه - ي .

وقد أثار هذا النوع من الفواتح دهشة العرب النازل بلغتهم القرآن ، كما أثار  
جدلاً كبيراً بين العلماء والمفسرين ؛ لأنهم رأوا فيه غرابة وعزة غير معهودتين  
في متعارف القول ومشهور الأساليب .

ونتج عن هذا الخلاف اتجاهان رئيسيان ..

الأول : يقضي بتفويض السر في ذلك إلى الله ، ويرى عدم الخوض فيه ،  
ويعده من المتشابه الذي لا يعلم حقيقته إلا الله .

ومن القائلين به خليفة الرسول أبو بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب ،  
وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، فقد نقل  
السمرقندي أنهم قالوا : الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يُفسَّر ، وقال  
أبو حاتم : لا ندري ما أراد الله عزَّ وجلَّ بها<sup>(١)</sup> .

وقد تابع الشعبي هذا الرأي وقال : إنَّ لكل كتاب سرّاً ، وإنَّ سر هذا القرآن  
فواتح السور<sup>(٢)</sup> ، هذه خلاصة هذا الاتجاه .

أما الاتجاه الثاني .. فيرى ضرورة تخريجها والبحث عن معانيها  
ومدلولاتها ، وقد تشعبت آراء هذا الفريق حول فهم معناها ، ويمكن تلخيص  
حصيلة ما قالوا به فيما يأتي :

(١) تفسير القرطبي : ١٣٤/٢ - ط . در الشعب .

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ٨/٢ .

١- منهم مَنْ يرى أنها - أي الحروف المبدوءة بها السور - أسماء الله سبحانه أو هي الاسم الأعظم ، ويُعزَى هذا القول لابن عباس رضي الله عنه وقد تابعه الكلبي وجعلها مقسماً بها ، وفي كشف الزمخشري كلام طويل حول رأي الكلبي في موضعها من الإعراب<sup>(١)</sup> .

٢- ويرى آخرون أنها أسماء للسور التي صُدِّرت بها ، ويُنسب هذا الرأي إلى زيد بن أسلم .

٣- وقال آخرون إنها رموز دالة على كلمات هي بعض حروفها . ﴿المر﴾ مثلاً بعض حروف كلمة هي : أنا الله أعلم .... وهكذا .

وقد اختار الزجاج هذا الرأي حيث قال : أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدي عن معنى ، وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة ، نظماً لها ووضعاً بدل الكلمات التي الحروف منها<sup>(٢)</sup> .

وقد استدل على مذهبه بمأثور كلام العرب . من ذلك :

قُلْتُ لَهَا قِيفِي      قَالَتْ : قَافُ

يعني : وقفتُ .

وذكر السيوطي نصوصاً أخرى وردت عن العرب استعملت فيها الحروف المقطعة بدل الكلمات<sup>(٣)</sup> . وكذلك ابن جنى في الخصائص<sup>(٤)</sup> .

٤- ويرى آخرون أن هذه الفواتح رموز يراد بها قيمتها العددية على طريقة «أبجد» ، ومن يرى هذا الرأي السهيلي حيث يقول : «لعل عدد الحروف التي في أوائل السور - مع حذف المكرر - للإشارة إلى مدة بقاء هذه الأمة»<sup>(٥)</sup> .

(١) الكشف للزمخشري : ج ١ .

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي : ج ١ .

(٣) تفسير القرطبي : ١٣٥/٢ - ط . دار الشعب .

(٤) الخصائص لابن جنى : ٣٠/١ .

(٥) الإقتان في علوم القرآن للسيوطي : ١٤٨/٢ .

وقد تعقَّب هذا الرأي ابن حجر ، وحكم عليه بالبطلان كما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنه النهي عن عد «أبجد» .

٥- وفريق آخر يرى أن هذه الحروف إشارة لورودها أكثر من غيرها في السور التي بدئت بها<sup>(١)</sup> .

٦- ونقل زكي مبارك في كتابه «النثر الفني» أن هذه الحروف هي وحدات صوتية تكوّن لحنًا موسيقيًا يراد به تحريك الشعور وإيقاظ الوجدان ، كما يكون ذلك في التراتيل الدينية لتهيئة النفوس لتلقي النصائح والإرشادات ، ويعزى هذا الرأي إلى مستشرق فرنسي يدعى «بلانشو»<sup>(٢)</sup> .

٧- ويرى فريق أنها أدوات للتنبيه ، عمد إليها القرآن ليكون في غرابتها ما يثير الالتفات .. ولكي يكون أبلغ في قرع الأسماع .

وقد اختلف القائلون بهذا الرأي في مَنْ هو المنبّه؟ الرسول ﷺ أم المشركون؟

فأبو حيان يرى أنها تنبيه للمشركين إلزامًا لهم بالحُجَّة ، ليستغرق بها المشركون فيفتحوا لها أسماعهم ، فتجب عليهم الحُجَّة بسماع القرآن<sup>(٣)</sup> .

ويرى الفخر الرازي أن المنبّه هو الرسول عليه السلام ؛ لأنه إنسان قد تشغله بعض الأمور<sup>(٤)</sup> .

وقد ارتضى الإمام الجويني - فيما حكاه عنه السيوطي - هذا الرأي ، وأخذ يعرض ما يراه مبررًا له<sup>(٥)</sup> .

---

(١) نشرت مجلة المصور بحثًا بالأرقام لعالم مصري أجراه على سور القرآن كله يؤكد هذا الرأي حيث زادت هذه الحروف الفواتح على غيرها نسبيًا .

(٢) بحث جديد في القرآن - محمد صبيح - ص ٢ .

(٣) البحر المحيط : ٣٤/١ .

(٤) التفسير الكبير للرازي : ٤٥٦/٦ .

(٥) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ١٣/٢ .

وذهب الزركشي إلى أن مجيء هذه الحروف في أوائل السور إشارة إلى غلبة مجيئها في كلمات هذه السور ، كما حاول أن يثبت وجه اختصاص كل سورة بما بدئت به بحيث لا تصلح ﴿الْم﴾ بدءاً لسورة قد افتتحت بـ ﴿الر﴾.. ذكر ذلك في تفصيل واف<sup>(١)</sup> .

من ذلك تكرار الخصومات في «سورة ص» حيث بدئت به ، ففيها خصومة النبي ﷺ مع الكفار ، والخصمان اللذان عند داود عليه السلام ، ثم تخاصم أهل النار ، ثم اختصاص الملائ الأعلى ، ثم تخاصم إبليس في شأن آدم<sup>(٢)</sup> .

٨- وذهب الشيخ طنطاوي جوهرى إلى ما خلاصته: أن القرآن كتاب سماوي ، والكتب السماوية تُصرِّح تارة وترمز أخرى ، وساق على ذلك دليلين: أحدهما : أن اليهود كان لهم رمز ، يتضح ذلك من حساب الجُمَّل حيث جعلوا الحروف رموزاً للأعداد .

ثانيهما : كذلك فإنَّ النصارى قد اتخذوا الحروف رموزاً دينية معروفة فيما بينهم أيام نزول القرآن ، وكانت اللغة اليونانية هي الرسمية في مصر ، وكانوا يرمزون بلفظ «إكسيس» عن : يسوع المسيح ابن الله المُخلَّص .

فالألف من «إكسيس» هي الحرف الأول من «إيسوس» يسوع ، والكاف هي الحرف الأول من «كرستوس» المسيح ، والسين مبدلة من حرف الشاء في «ثبو» الله ، والياء تدل على «إيوث» ابن ، والسين الثانية منها تشير إلى «توتير» المخلص ، ومجموع هذه الكلمات عندهم هو : يسوع المسيح ابن الله المُخلَّص<sup>(٣)</sup>؟!

وهذا الرأي يبدو في ظاهره دفاعاً عن مبدأ الرمز بالحروف الوارد في القرآن الكريم وليس محاولة لفهم هذه الظاهرة الفريدة .

(٢٠١) انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي : ١٧٠/١ - ط . الحلبي .

(٢) تفسير الجواهر للشيخ طنطاوي جوهرى - انظر تفسير آل عمران .

٩- ويروي مالك بن نبي ، نقلًا عن « النقد الحديث » ، أن هذه الفواتح ترجع إلى حالة اضطراب عضوي يحدث للنبي عليه السلام في حالة الكشف والتلقي .

لكنه يدفع هذا الفرض بما هو معروف عن النبي عليه السلام ؛ لأنه كان يمثل أكمل المعادلات الشخصية في نواحيها الثلاثة : الخلقية ، والعقلية ، والبدنية ، ولم يدع التاريخ أدنى ريب في هذه النقطة ، فلا مجال إذن لأن نتخيل أي افتراض عن الذات المحمدية ، حتى نشرح هذا الإبهام أو ذلك المرض العضوي .

« ومن جهة أخرى لسنا نجد في أدب هذه الذات الشخصي الغني - وهو « الحديث » - أي أثر لتلك المغلقات ، ولا توجد أية رواية مشافهة عن النبي مشتملة عن مثل هذا التصدير الرمزي »<sup>(١)</sup> .

هذا رده ، وهو دفع ناجح بلا شك ، ولكننا نرى في المسألة دفعًا آخر مستمدًا من طبيعة الظاهرة نفسها لا من شيء خارج عنها ذاتًا ، أو أدب ذات ، وحاصل هذا الرد :

« فقد تنبه السلف إلى أن مجموع هذه الحروف - بغير المكرر منها - أربعة عشر حرفًا هي نصف الحروف العربية .

كما أطلال بعضهم النظر في هذه الحروف ، فلفتهم منها أنها تصف الحروف الهجائية على أي وجه من الوجوه التي اصطلح عليها علماء اللغة بعد نزول القرآن بزمن طويل .

ففيها خمسة حروف مهموسة ، وعدد المهموس من الحروف عشرة ، وفيها نصف الحروف المهجورة وفيها ثلاثة من حروف الحلق ، هي نصف الحروف الحلقية ، كما أن فيها نصف الحروف غير الحلقية .

---

(١) الظاهرة القرآنية - ترجمة دكتور عبد الصبور شاهين - طبعة ثالثة - ص ٣٢٢، ٣٢٣ .

وفيها نصف الحروف الشديدة ، كما أن فيها نصف الحروف الرخوة ، وفيها حرفان من الأحرف الأربعة المطبقة ، كما أن فيها نصف الحروف الأخرى المنفتحة غير المطبقة .

وفيها نصف الحروف المستعلية ، كما أن فيها نصف الحروف المنخفضة<sup>(١)</sup> .

فهل هذه الدقة الرائعة ، والتوزيع السحري بين جمل الحروف وأنصافها يمكن أن يعزى إلى ذات مريضة ، أو أعصاب مضطربة؟! .

هذا ما يرفضه العقل والواقع معاً ، ولا يمكن أن يُعزى مثله إلا إلى الوحي .

١٠- وذهب قطرب والفرّاء إلى أن هذه الحروف إشارة إلى حروف الهجاء لا تتعدها ، أعلم الله بها العرب حين تحدّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم ، ليكون عجزهم عن محاكاته أبلغ في الحجّة عليهم ، إذ لم يخرج عن طريقة كلامهم في أصل التأليف<sup>(٢)</sup> .

هذا عرض سريع لأهم الآراء في توجيه هذه الظاهرة ، وليست كلها مقبولة ، وقد ناقشنا فيما مضى رأيين منها ورددناهما ، وهما ما ورد عن طنطاوي جوهرى ، وما نقله صاحب الظاهرة القرآنية .

أما الآراء الأخرى فيمكن النظر فيها على الوجه الآتي :

#### ● نقد وتحليل :

أولاً : إنّ القول بأنها أسماء الله أو للسور التي هي فيها مردود لاعتبارات :  
أما كونها أسماء الله .. فإن أسماء الله معلومة من السنّة كما في الحديث الشريف : « إنّ لله تسعة وتسعين اسمًا » ، وكانت السنّة مقررة لما جاء في

(١) الإعجاز البياني للقرآن - دكتورة عائشة عبد الرحمن ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢) انظر تفسير القرطبي : ١/١٣٤ - ط . دار الشعب .

القرآن الكريم وليست هذه منها ؛ لأن أسماء الله توقيفية ، لا يجوز إطلاقها إلا بإذن من الشرع ، وهذه اجتهادات مفسرين .

أما كونها أسماء للسور .. فإنَّ ذلك يؤدي إلى الخلط بين المسميات ف ﴿ التمر ﴾ مثلاً وردت فواتح لست سور<sup>(١)</sup> . فأيهما ألف لام ميم ؟ أم هي أسماء للست في آن واحد !؟

وهذه السور قد أطلق عليها العلماء أسماءها لاعتبارات مناسبة كالبقرة .. ، وآل عمران .. إلخ . من هذا ترى أن كلا الاحتمالين - أسماء الله ، أو للسور - مردود .

أما القول باعتبار القيم العددية لهذه الحروف ، فرأي يبدو عليه الجفاف ، وقد صح النهي عنه كما أشرنا مثلاً إلى قول ابن عباس فيه ، وقد صح مثله عن القاضي أبي بكر في فوائد رحلته ، حيث جاء في الإلتقان للسيوطي : ومن الباطل علم الحروف المقطعة في أوائل السور<sup>(٢)</sup> .

« والذي أقوله : إنه لولا أن العرب كانوا يعرفون لها مدلولاً متداولاً بينهم لكانوا أول من أنكر ذلك على النبي ﷺ ، بل تلا عليهم ﴿ حم ﴾ و ﴿ ص ﴾ وغيرهما فلم ينكروا ذلك ، بل صرَّحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة مع تشوقهم إلى عشرة ، وحرصهم على زلة ، فدل على أنه كان أمراً معروفاً بينهم لا إنكار فيه .

ومما يضعف هذا الرأي أن منشأ جماعة من اليهود ، ظنوا الأمر كذلك حين سمعوا القرآن ، ثم لم يلبثوا أن تبينوا خطأ ظنهم<sup>(٣)</sup> .

كذلك - فإنَّ القول بأنها رموز لكثرة ورودها في السور التي هي فيها أكثر من غيرها من الحروف الأخرى ، لا عمق فيه ، وما يمكن أن يشار حوله من

(١) وهي : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة .

(٢) الإلتقان في علوم القرآن للسيوطي ١١/٢ .

(٣) جاءت هذه القصة كاملة في الإلتقان : ١٠/٢ .

نقد ، ما هي القيمة البيانية لهذه الإشارات؟! وهل هذا القول لائق بجلال القرآن وعلو منزلته؟؟

### • أرجح الآراء في هذا المجال :

وبعد هذه المناقشة السريعة يبدو واضحاً أن أرجح هذه الاتجاهات على الإطلاق ما ذهب إليه قطرب والفرّاء من أن تلك الحروف علامات دالة ورموز منصوبة فحواها أن هذا القرآن الذي أعجز العرب أمره ، وبان لهم وجه التحدي فيه ليس بلغة غير لغتهم بل هو مؤتلف من مادة اللغة التي يحذقونها، ويجيدون التباري فيها ، ولهم تفنن في أساليب وطرق تعبيرها ، إذ لو كان بغير لغتهم لما صح به التحدي ولكان لهم عذر في الإعجاز من أوسع طريق ، وأغنى مورد .

### ويرجّح هذا الرأي أمور :

١- أن ستاً وعشرين سورة مما فواتحه حروف مقطعة مكية النزول ، والعلّة أن مظاهر العناد والتحدي للدعوة الجديدة في مكة قد بلغ نهايته فناسب ذلك أن يورد القرآن كثيراً من النماذج التي تؤيد صحة الدعوة ، وتؤكد نسبتها إلى الله تعالى :

٢- أن معظم هذه السور فيها حديث - بعد الفواتح مباشرة - عن سمو القرآن وعلو طبقته : ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ٢) ، و﴿ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ (هود: ١) ... إلى آخر هذه الآيات والمطالع .

وقد تنبه العلماء قديماً إلى هذه الظاهرة ، فنص عليها الرازي<sup>(١)</sup> ، والزرکشي<sup>(٢)</sup> وغيرهما .

(١) التفسير الكبير للرازي : ٦/٦٤٤ .

(٢) البرهان في علوم القرآن للزرکشي : ١/١٧٠ .

قال الزركشي : «واعلم أنَّ عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن .. وقد جاء بخلاف ذلك في العنكبوت والروم فُيسأل عن حكمة ذلك»<sup>(١)</sup> .

والمشكلة تتصور في العرض الآتي : فقد حرص القرآن الكريم في كل سورة بدئت بالحروف المقطعة أن يذكر معها ما يتعلق بالقرآن . وتختلف هنا المنهج في ثلاث سور هي : مريم - العنكبوت - الروم . فقد جاءت مطالعها هكذا :

﴿ كَهَيْعَةَ ۝ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرِيَّا ۝ ﴾ (مريم: ٢٠١) .

﴿ اَلَمْ ۝ اَحْسَبَ النَّاسُ اَنْ يُتْرَكُوْا اَنْ يَقُوْلُوْا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُوْنَ ۝ ﴾

(العنكبوت: ٢٠١) .

﴿ اَلَمْ ۝ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝ ﴾ (الروم: ٢٠١) .

والحق أنَّ المتتبع لهذه السور الثلاث يجد في غضونوها ذكراً وحديثاً عن القرآن ، أو الانتصار للقرآن كما يقول الحافظ ابن كثير<sup>(٢)</sup> .

ففي مريم تكرر قوله تعالى خطاباً للنبي عليه السلام : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ ﴾ خمس مرات [الآيات : ١٦ ، ٤١ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٦] .

ثم تأتي في نهاية السورة هذه الآية : ﴿ فَإِنَّمَا يَسْرُنَهُ لِيَلْسَانَكَ لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ (مريم: ٩٧) .

وكذلك الحال في سورة العنكبوت فقد وردت فيها الآيات الآتية :

﴿ اَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ (العنكبوت: ٤٥) .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ (العنكبوت: ٤٧) .

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/١٧٠ .

(٢) تفسير ابن كثير : ١/٨٨ .

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨).

﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ (العنكبوت: ٤٩) .

﴿ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ (العنكبوت: ٥١) .

وجاء - كذلك - في سورة الروم : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾

(الروم: ٥٨) .

وبهذا يمكن أن نخرج بما يأتي :

أولاً : أن كل سورة بدئت بالحروف المقطعة ، فيها حديث مباشر عن روعة القرآن الكريم وإعجازه .

ثانياً : إذا لم يكن ذلك الحديث مباشراً ، فإنه يأتي في غضون السورة مبيّناً فضل القرآن وأثره ، ومنتصراً له على سواه ، ولذلك يطرد هذا الملحظ في التسع والعشرين سورة التي جاءت فواتحها حروفاً مقطعة .

٣- أن هذا الرأي أبعد ما يكون عن النقد فضلاً عن لياقته بجلال القرآن . ووجوه الإعجاز البياني فيه .

٤- أن الزمخشري - وهو خير بنقد الأساليب وجهات الجمال والقبح فيها - يُرجِّح هذا الرأي ويقويه ، ويورد في ذلك كلاماً حسناً . إذ يرى أن مجموع الحروف التي بدئت بها هذه السورة يبلغ أربعة عشر حرفاً ، وهي نصف حروف المعجم ، كما تحتوي هذه الحروف على لطيفة أخرى ، هي أنها تشتمل على أنصاف أنواع الحروف : المهجورة ... والمهموسة ، والشديدة ، والمستعلية ..

ويعلق على هذا فيقول : « فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته فكان الله - عزَّ اسمه - عددً على العرب

الألفاظ التي منها تركيب الكلام . إشارة إلى ما ذكرت من التبكييت لهمم وإلزام الحجة إياهم»<sup>(١)</sup> .

ويقول أيضاً : « وهذا القول من الخلاقة والقبول بمكان»<sup>(٢)</sup> .

٥- ولعل مما يقوي هذا الرأي أنه يلتقي مع غيره من الآراء ، إذ لا مانع أن تؤدي هذه الحروف - بالإضافة إلى معنى التحدي - معنى آخر مما ذكره كالتنعيم الصوتي والدلالة على ورودها أكثر من غيرها .

### • تمثيل وإيضاح :

هذه خلاصة ما قيل في هذا الأصل من الفواتح .. وخلاصة ما أراه فيها كذلك ، ومثله عندي كمثل صانع ماهر ، أعد مواد مما يراه الصانعون ويألفونه ويعدون منه أشكالاً متفاوتة في الجودة والحسن كل حسب ما أُوتِيَ من مهارة وحذق في الصناعة ، فجاء هذا الصانع الذي ليس له نظير في الإبداع فطرح مواد التي أعدها أمام الصانعين وصنع منها شكلاً يحسنونه في هيئته ونظامه ودقته أروع أمثلة جمال الفن مما ليس لهم قدرة على الإتيان بمثله مع علمهم بأن مواد المصنوع منها طوع يد الجميع ، فالحذق والمهارة إنما هما في الصناعة لا في المواد المستعملة فيها ، إن هذا أدعى إلى إقرارهم بالتفوق لهذا الصانع وأنه ليس من طبقتهم وإن اتحد العمل عند الجميع .. « والله المثل الأعلى» .

### • المجموعة الشرطية :

جاء الشرط فاتحة لسبع سور ، هي : « المنافقون ، الواقعة ، التكوير ، الانفطار ، الانشقاق ، الزلزلة ، النصر » . هذه السور السبع يمكن أن نصطلح على تسميتها : المجموعة الشرطية - أو القسم الشرطي من سور القرآن الكريم - والباحث يرى أنها تشترك في عدة خصائص .

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٢١/١ .

(٢) المرجع السابق ٢٢/١ .

## ● خصائص المجموعة الشرطية :

أولاً : أن الطابع الغالب عليها أنها مكية النزول ، ما عدا « الزلزلة » فهي مدنية باتفاق ، وما عدا « النصر » ففيها رأيان ، مكية باعتبار المكان لنزولها بعد الهجرة ، وما عدا « المنافقين » فمدنية باتفاق .

ثانياً : أن في معظم هذه السور حديثاً عن القيامة ومقدماتها ، مع ما اقترن به الحديث عنها من أغراض أخرى لها بالمقام نسب ورحم .

ثالثاً : أن الشرط فيها قد تردد كثيراً في السورة الواحدة ، ولم يقتصر وروده على مطلع السورة فحسب وذلك أمر ظاهر من مجرد تلاوة هذه السور السبع وتتبع أساليب التعبير فيها .

رابعاً : أن هذه السور السبع - المجموعة الشرطية أو القسم الشرطي - موضوعاتها أمور مستقبلة في الغالب ، استقبالاً حقيقياً كما سيحدث من مقدمات القيامة وأهوال الحشر ، أو استقبالاً باعتبار الحكاية كمجيء نصر الله في مطلع سورة « النصر » ، إلا ما دعا إليه المقام من الأغراض الأخرى كتقرير أمر واقع ، أو لمحة من أخبار تكمل بها الصورة ويتضح بها المقام .

خامساً : أن الحديث فيها إذا كان عن مشهد من مشاهد القيامة ، أو عن أمر يتكرر من مظاهر الطبيعة وسنة الله في الكون ، أو عن مصير عام محتوم ، أو ما قارب هذه الأمور فالأداة المفضلة هي « إذا » المؤذنة بتحقيق شرطها وجوابها ، وإن لم يكن الحديث عن هذه الأمور بل غيرها ؛ فالأداة غيرها « إن » أو « لو » وما شابه ذلك .

والقيمة البيانية لهذا المطلع الشرطي التي من أجلها - والله أعلم - آثر القرآن افتتاح هذه السور بها ، هي أن الأسلوب الشرطي يمتاز بربطه بين أجزاء الكلام ربطاً ملاحظاً فيه ترتب المسبب على السبب ، فإذا ذُكرت أداة الشرط وأردفت بفعل الشرط تشوقت النفس إلى ذكر ما سيكون .. فإذا ذُكر الجواب بعد هذه الإثارة وهذا التشويق تمكن أيما تمكن ، والذي يزيد من هذه القيمة البيانية لأسلوب الشرط في القرآن الكريم أمران :

الأول : أن القرآن في غالب الفواتح من هذا النوع لا يكفي بفعل شرط واحد - كما هو الحال في غيره - بل يقرن به أشباهاً ونظائر يطول تأمل السامع فيها وتضاعف من تشوقه إلى الجواب كلما انتقل من جزء إلى جزء ، فيأتيه الجواب بعد تلهف وطول ترقب .

الثاني : أن أجزاء الأسلوب الشرطي في القرآن ليست من جنس ما يستعمله الناس من أمور عادية قد لا يهتم بها إنسان ، أو ليس للوقوف عنده على مدلولاتها كبير معنى .

أو ربما تنبأ - سلفاً - بما سيكون عليه الحال فلا يفيد منها فائدة جديدة .

وليس الحال كذلك في القرآن ، بل فيه - فوق دقة النظم وجمال التركيب - غرابة وجزالة ، ولناخذ لذلك - مثلاً - سورة التكوير :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّتَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝ وَإِذَا الصُّحُفُ نُفِثَتْ ۝ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝ فَلَا أُقْسِمُ بِالْحَنسِ ۝ الْجَوَارِ الْكُنسِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۝ ﴾ (التكوير: ١-٢٢).

لنتل هذه السورة حق التلاوة ، ولنتأمل الشرط الذي بدئت به ، ولننظر إلى الأشباه والنظائر التي عطف عليه ، ولنتستحضر معاني هذه الصور التي ترمز إليها كل وحدة من وحدات الشرط وأشباهه ونظائره ، ولنحاول تأملها كأنها واقعة - الآن بالفعل - ولنذكر كم من المراحل سبحنا فيها ، وكم من المشاهد تجددت أمامنا كل مشهد غريب غريب في هيئته وصورته رهيب رهيب في حدوثه وظهوره ، يعلو ويسفل .. مرة في السماء وأخرى على الأرض ، إنها

رحلة طويلة شاقة تقطعها النفس حتى تقف على حقيقة الرحلة والغاية التي من أجلها شُدَّت الرحال : ﴿ عَامَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ (التكوير: ١٤) (١) .

هنا تستريح النفس من عناء رحلة بهرت الأنفاس ، ولكنها استراحة « ليست بالطويلة » فهي على موعد مع رحلة طويلة أخرى تبتدئها من هنا ، رحلة من رحلات الكون ليس المقطوع فيها مسافة أرض بل وحدات زمن وتجدد ظواهر:

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ﴿١﴾ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ﴿٢﴾ وَالْيَلِيلِ إِذَا عَسَّعَسَ ﴿٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿٤﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٥﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ (التكوير: ١٥-٢٠) .

هاتان رحلتان ، أولهما أطول من الثانية ، وبين الرحلتين نسب وثيق وعرى محكمة .

فالسورة كلها مسوقة لبيان وتقرير حقيقتين كبيرتين . وهما :

أولاً : وقوف الإنسان على حقيقة أمره يوم القيامة .

ثانياً : وصف القرآن بما هو حقيقه به من أوصاف الكمال ، وكل من هاتين الحقيقتين ذُكِرَ معها ما يمهد لها ويناسبها .

ففي جانب الحقيقة الأولى أدت المعاني المقصودة منها بشرط ﴿ إِذَا أَلْشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، ثم تتابعت نظائره وأشباهه حتى بلغت اثنتي عشرة صورة من صور البعث ، وبلغت الوحدات في هذا الجزء من السورة أربع عشرة وحدة محسوباً في ذلك جواب الشرط ، والوحدة اللاحقة بالحديث عن الموءودة . وكل هذه الصور من مشاهد القيامة وأحوالها ، وكلها آيات دالة على قدرة الله الفائقة .

(١) تأمل تنكير «نفس» وتلوق ما توحى به العبارة من جلال الموقف وخطره .

## ● سر الحروف الساكنة :

وانتهت فواصل الآيات بالتاء الساكنة ، وهي من الحروف المهموسة ،  
وتساوت الوحدات الصوتية فصارت كالأنغام الموسيقية سريعة الحركة لاهثة  
الإيقاع تشترك بتصويرها الصوتي في تجسيم المشهد وتمثيله للخيال .

ولعل السر في ختم هذه الفواصل بالتاء الساكنة الهامسة الإشارة إلى انقضاء  
حركة الحياة الأولى في الكون ، والإيدان بسيطرة الخوف والدهشة على النفوس  
والوجوم الذي يغشى الناس ... وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا  
همساً .

وداعي هذا الخوف المسيطر على النفوس ، أوضاع الكون الغريبة التي صار  
إليها .. وليس في النفوس البشرية استعداد لتحملها في وعي وإدراك .

والإنسان يومئذ سيرى حقيقة عمله ويقف على نوع مصيره : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ  
مَا أَحْضَرَتْ ﴾ (التكوير: ١٤) ، والنفوس عندما تصل إلى هذا الموقف تنهياً  
لامتثال الأوامر ، وتتطلع إلى حسن التوجيه وتهفو إلى الإرشاد المنجي من هذه  
الويلات .

## ● حقيقة كبرى :

لهذا - والله أعلم - يعقب القرآن هذا المشهد المثير المخيف بعرض حقيقة  
كبرى من حقائق الإيمان .

وهو لا يكتفي بتهيئ النفوس الذي شرحناه آنفاً ، بل يمهد لهذه الحقيقة  
الثانية بذكر آيات الله في الكون من كواكب خُسن كُنس ، تسير في فلكها بنظام  
دقيق ، ومن ليل يقبل بظلامه فيسكن كل متحرك ، ويختفي كل ظاهر ، وصبح  
ترسل أشعته هادية باصرة فيتحرك كل ساكن ويظهر كل مختمف ... إنه بعث ،  
إنه حياة .

بعد هذا كله يعرض القرآن حقيقة الإيمان الكبرى : القرآن كتاب الله ووحى  
أوحاه : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾<sup>(١)</sup> .

### ● معان إضافية موحية :

هذا وصف حقيق به القرآن .. وقد تضمن هذا الجزء معاني إضافية بالنسبة  
إلى الهدف الرئيسي من الكلام عن القرآن ، ولكن حين ننظر إلى هذه المعاني  
الإضافية نجد لها أروع الدلالة على تأكيد المعنى الرئيسي .. وهو وصف  
القرآن بأنه وحى الله إلى رسوله .

وتلك المعاني الإضافية هي :

أولاً : وصف جبريل عليه السلام - وهو سفير الوحي - بما ينبئ عن كرمه  
عنده ... ونباهة شأنه فقال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٥﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي  
الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٦﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ (التكوير: ١٩-٢١) وقد جاء ضمن هذه  
الأوصاف وصفه بالأمانة ، هذا الوصف هام حيث إن جبريل أحد مصادر  
القرآن ، إذ يشعر ذلك بصيانة القرآن من التحريف ، فجبريل مبلغ له كما تلقاه  
من ربه لم يغير أو يبدل فيه لأنه أمين .

ثانياً : وصف محمد ﷺ وهو المتلقي للقرآن عن جبريل كما أمره ربه ، ثم  
المبلغ به الناس بصفة الرشد والسلامة من الآفات التي تنقص من قدر أصحاب  
الرسالات وعلى رأسها الجنون : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ (التكوير: ٢٢) ،  
وهذا الوصف هام أيضاً ينبئ أن محمداً عليه السلام قد بلغنا القرآن كما أنزله  
ربه ، لم يخلط فيه ، ولم يلتبس عليه منه شيء لأنه عاقل رشيد ، والجنون  
المنفي عنه هو مظنة الخلط والإلباس ، وقد عدل عن اسمه الصريح إلى  
﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾ لأن في هذا التعبير إشعاراً بالزامهم بالحجة إذ هو ملازم لهم

---

(١) المفسرون علون المراد بالرسول الكريم هنا هو : جبريل عليه السلام . انظر : تفسير  
الكشاف للزحسري : ٥٦٨/٤ . وإرشاد العقل السليم لأبي السعود : ج ٤ . وأسرار  
التنزيل للنسفي : ج ٤ .

وهم يعرفون تماماً رجاحة عقله وحدة ذكائه وكريم سيرته ، ألم يسموه قبلاً :  
الصادق الأمين .

وبهذين الوصفين ، وصف جبريل بأنه أمين ، ووصف محمد عليه السلام  
بالرشد ونفي الجنون عنه سلم مصدران من مصادر القرآن من أي عيب يكون  
مظنة التحريف والتبديل ، وسلم القرآن نفسه من كل عيب يتقوله المتقولون  
عليه .

ثالثاً : إن فعل القَسَمِ ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ صدر بحرف النفي ، ثم ذكر المقسَم به  
وهو عدة مظاهر كونية : كواكب خُس كُنُس ، وليل عسعس ، وصبح تنفس ،  
ثم ذكر المقسَم عليه ، وهو كون القرآن وحياً من عند الله نزل به أكرم مَلَك  
على أشرف رسول ، فلماذا نفى القسم إذن والحقيقة المراد إثباتها جديرة بأن  
يُقَسَم عليها لأن كثيراً من المعاندين حاولوا التشكيك فيها ؟ لقد حاول كثير من  
العلماء أن يُخَرِّجوا العبارة على إثبات القسم .

وليس من ضير أن نُبقي القَسَم منفيًا على ظاهره وسره البياني حينئذ أن  
الحقيقة ظاهرة لا تحتاج إلى أن يُقسَم على إثباتها إجراء لإنكار المعاندين كلا  
إنكار ، لأنه لم يصادف موضعاً يتوجه إليه على وجه مقبول ، ويكون فائدة ذكر  
القَسَم منفيًا للإشارة إلى أن هذه النكتة توصلًا لِذِكْرِ المقسَم به في الظاهر  
باعتبار أنها آيات ناطقات .

رابعاً : إن قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ (التكوير: ١٩) ، وفي قوله :  
﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (التكوير: ١٨) وهذا نمط بياني بالغ الدقة فكأن الله يريد  
أن يقول : القرآن في هدايته للناس كالصبح في إشراقه وبث الحياة في الكائنات  
بعد سكون وظلام ..

خامساً : إن فواصل الرحلة الثانية ، تنتهي بحرف السين المتحرك ، وهو من  
أحرف التصغير ، والتصغير حركة دائبة مستمرة ، والكلمات في أنفسها حركة  
عنيفة يحتاج عضو النطق إلى مجهود في تأديتها بخلاف فواصل الرحلة الأولى

المنتھية بحروف ساكنة ، ولعل الفرق بين الحالتين واضح ، فقد علمنا السر هناك ، أما في هذه المجموعة القسمية فإن المخاطبين فيها ليسوا على مشارف البعث وأهوال القيامة وإنما هم في فسحة من الأمل في الحياة بطولها وعرضها وحركتها وصخبها لذلك جاءت الكلمات متموجة مدوية والفواصل متحركة سافرة .

وهذا هو صنيع القرآن : لكل جملة بل لكل كلمة بل لكل حرف وحركة مكان ودلالة ، ولكل مقام مقال .

وهاتان الحقيقتان اللتان دار عليهما رأس الأمر في السورة كلها - مع توابعهما - أدبتا في عبارتين جزلتين : شرط ، وقسم .

### ● مطالع سور المجموعة الشرطية :

وهذا ما يمكن ملاحظته في سورة التكوير ، وما يمكن ملاحظته في بقية هذه المجموعة الشرطية ، وقد ألمعنا إليها ، أن القرآن تحدث فيها عن مظاهر القيامة ، فكان أسلوب الشرط هو وسيلته المفضلة والأداة هي « إذا » المؤذنة بتحقيق جوابها ، لأن الساعة آتية لا ريب فيها ، ومظاهر القيامة موضع اهتمام فيها لأنها صُدِّرت بها وعليها أدار الحديث .

فمن ذلك مطلع سورة الواقعة : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۗ لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَادِبَةٌ ۚ ۱ ۚ حَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۚ ۲ ۚ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۙ وَنُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۙ ۳ ۚ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۙ ۴ ۚ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۙ ۵ ۚ ﴾ (الواقعة: ۱-۷) .

ومطلع سورة الانفطار : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ۙ ۱ ۚ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ۙ ۲ ۚ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۙ ۳ ۚ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۙ ۴ ۚ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۙ ۵ ۚ ﴾ (الانفطار: ۱-۵) .

ومطلع الانشقاق : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۙ ۱ ۚ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۙ ۲ ۚ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۙ ۳ ۚ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۙ ۴ ۚ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۙ ۵ ۚ ﴾

(الانشقاق: ۱-۵) .

وسورة الزلزلة : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَآءَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾ (الزلزلة: ١-٥) .

### ● سر « إذا » :

في مطالع هذه السور يتحدث القرآن عن مشاهد القيامة ، فلم يستخدم من أدوات الشرط غير « إذا » وقد تقدم وجهه في حديثنا عن سورة التكوير ، وفواصلها منتهية بالتاء الساكنة مثل فواصل سورة التكوير ، وهذا يؤيد ملاحظتنا التي أشرنا إليها هناك ، ولا تظن أن سورة « الزلزلة » خرجت عن هذا النظام ، فإننا نلاحظه في غير الفواصل في موضعين : « زلزلت » و « أخرجت » ، أما فواصلها فلا يخفى أنها منتهية بالألف الساكنة .

والحال كذلك - أعني استخدام الأداة « إذا » - إذا كان الحديث عن منظر متكرر من مناظر الطبيعة ومثاله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿٣٦﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (التكوير: ١٧، ١٨)، ومثله : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ ﴾ (الانشقاق: ١٨) .

وكذلك الحال إذا كان الحديث عن مصير محتوم ، سواء أكانت حتميته لسنن خاص أو عام ، ومثال الأول : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ﴿١﴾ ﴾ (النصر: ١) لأن مجيء النصر أمر محتوم لأنه وعد الله لرسوله ، والله لا يخلف الميعاد .

ومثال الثاني : ﴿ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ﴿١١﴾ ﴾ (المنافقون: ١١) لأن مجيء الأجل أمر محتوم كذلك لأنه سنة الله في الخلق لا فرق بين كائن وكائن ، فالأمر هنا يجري على سنن عام .

### ● إيثار غير « إذا » :

وإذا خرج الحديث عن هذه المواقف وأشباهاها فإن المجال فسيح أمام أدوات الشرط غير « إذا » كل حسب ما يقتضيه المقام .

ومن ذلك قوله في سورة الواقعة : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطْبًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ (الواقعة: ٦٥) وقوله : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْتَهُ أَجَا جًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ (الواقعة: ٧٠) .

ومثله من سورة المنافقين : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المنافقون: ٨) .

اختلفت الأداة في هذه النصوص لاختلاف الأغراض إذ المراد من الأول التهديد بتبديل النعم وذلك أمر متوقف على المشيئة الإلهية إذا أرادته كان وإلا فلا .

والمراد من الثاني : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ حكاية حال للمنافقين وهم غير ضامني رجوعهم إلى المدينة وذلك - في تصورهم - لو حدث لترتب عليه ما دبروه من آثار .

والفرقة بين أدوات الشرط على هذا الأساس ليست خاصة بمجموعة السور الشرطية بل عامة في جميع سور القرآن ، ولا يخالف إلا لداع بلاغي ، وإنما آثرنا الحديث عما جاء منه في هذه المجموعة لأن المجال خاص بها .

### ● ظاهرتان عامتان :

والذي أريد إثباته - هنا - أن مجموعة كل نوع تحكمها ظاهرتان :

الأولى : أن كل مجموعة من هذه السور انتظمت تحت أصل واحد من هذه الأصول العشرة بينها مناسبات وخصائص كانت سبباً في أن تكون هذه المجموعة جدولاً متميزاً يتقدمه مطلع واحد متحد السمات أو متقاربها ، بحيث يتضح عند التأمل أن انتظامها تحت ذلك الأصل لم يكن محض صدفة ، بل هو تدبير حكيم ، وصنع خبير .

الثانية : أن تلك الأصول - في جملتها - ضرب من البيان رفيع ، ونمط من التعبير معجز ، ولون من البلاغة فريد ، إذ هي آنتق ، وأنسب الكلام مطالع ،

وأجزلها وأعذبها ألفاظاً ، وأشرفها وأنبأها مقاصد ، وأحسنها وأجودها سبباً ،  
وأدقها وأروعها نظماً .

ومطالع الكلام هي أول ما يقرع السمع ويصل إلى النفس ، فإذا توافرت لها  
خصائص التعبير الجميل خفت النفس لسماعه ، وأقبلت على فهم معناه ،  
وانتهاج نهجه وصارت معه حيث يكون .

وقد جاءت هذه الفواتح كلها وافية بهذا الغرض عامرة بتلك الخصائص وهو  
أمر شهد به أرباب القول وحذّاق الكلام حتى من أعداء القرآن أنفسهم ، والحق  
ما شهدت به الأعداء .

والآن .. فقد بان لنا أن كلتا المجموعتين - ما بدئت بحروف الهجاء ،  
وما بدئت بأساليب الشرط - لم يكن هذا السلوك في أي منهما أمراً صنعته  
الصدفة ، بل كان لخصائص تعم أفراد المجموعة ، وتربط بينها فتجعلها قسماً  
ذا ملامح خاصة ، وقد حاولت جهد ما أستطيع أن أكشف عن شيء من تلك  
الخصائص التي تسري بين وحدات كل مجموعة وكان مرجعي في ذلك هو  
القرآن نفسه .

وهذه براعة استهلال ، ذات دلالات بيانية تضاف إلى وجوه إعجازه وجمال  
أسلوبه وسحر بيانه .

## ٢- فواصل القرآن :

فاصلة الآية هي آخر كلمة فيها ، وللعلماء تعريفات متعددة في تحديد  
معنى الفاصلة فمرة يُعرفونها بأنها كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينية  
السجع<sup>(١)</sup> ، وقال الداني : هي كلمة آخر الجملة ، والفرق بين التعريفين واضح ،  
الأول يخص الفاصلة بأخر الآية وهو ما عليه العمل ، والثاني يعتبر الفاصلة  
كلمة آخر الجملة سواء أكانت هذه الجملة في أول الآية أو وسطها أو آخرها  
فهو غير مانع إذ تدخل فيه الفاصلة اللغوية مع الفاصلة الاصطلاحية وهذا عيب  
في التعريف .

(١) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي : ٩٦/٢ .

لذلك نقده الجعبري فقال : « وهذا خلاف المصطلح ولا دليل له في تمثيل سيويه ب ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ (هود: ١٠٥) و ﴿ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ (الكهف: ٦٤) . وليس رأسي آية لأن مراده الفواصل اللغوية لا الصناعية»<sup>(١)</sup> .

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني : « الفواصل حروف متشاكله في المقاطع يقع بها إفهام المعنى ، ولعل علة التسمية « فاصلة » لأنها تفصل بين الآي ، وتميز بينها » .

### ● آراء العلماء حول السجع في القرآن :

وقد سموا التشاكل الواقع بين الحروف في أواخر الآي فواصل ، وسموا نظيره في الأساليب الأخرى سجعا ؛ لأن مجيء السجع في القرآن لم يكن محل اتفاق بين العلماء ، فانقسموا إزاء هذه القضية قسمين :

الأول : يمنع أن يكون في القرآن سجع ، ولهم في ذلك حجج وأسباب ذكروها وبنوا مذهبهم عليها .

الثاني : يرى جواز مجيء السجع في القرآن ، بل هو وارد فيه فعلاً ، ولهم ردود على حجج وأساليب المانعين ، وأسباب أخرى مهّدوا بها لمذهبهم .. وبنوا فكرتهم عليها .

ومن أدلة المانعين :

١- أن القرآن وصف لله ، فلا يجوز وصفه بما يرد به إذن شرعاً .

٢- أن السجع من قولهم : « سجع الطير » وشرف القرآن ألا يُستعار لشيء فيه لفظ أصله مهمل .

٣- أن السجع يُقصد ثم يُحال المعنى عليه وفي هذا ضرب من التكلف ، أما الفاصلة فيُقصد بها المعنى أولاً ، ثم يُحال عليه اللفظ ، فالسجع عيب والفواصل بلاغة .

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ٩٣/٢ .

٤- لو كان في القرآن سجع لما كان خارجاً عن أساليب كلامهم ، ولو كان كذلك لما كان فيه إعجاز ولو كان جاز أن يقال : إنه سجع معجز لجاز أن يقال : إنه شعر معجز ، وكيف والسجع مما كانت تألفه الكهانة من العرب ، ونفيه عن القرآن أجدر أن يكون حُجَّةً من نفي الشعر ؛ لأن الكهانة تنافي النبوات ، وليس كذلك الشعر .

٥- ولو سلمنا بأن في القرآن سجعاً لكان مذموماً في بعض المواضع لمجيئه على غير شرط السجع الحسن ، وهو ما كان متقارب الحروف ، ولعدم استواء مقاطعه في الطول - أحياناً - وهذا غير مُرضٍ ، ولا محمود ، لأن للسجع منهجاً ملحوظاً وطريقاً مضبوطاً مَن أدخل به وقع الخلل في كلامه<sup>(١)</sup> .

وهذه خلاصة أدلة المانعين وكان أولهم الأشاعرة ، ثم تابِعهم كثير من العلماء مثل ابن خلدون والرماني والباقلاني .. وغيرهم .

يقول ابن خلدون : « ... أما القرآن - وإن كان من النثر - إلا أنه خارج عن الوصفين ليس يسمى مرسلًا مطلقًا ولا مُسجَعًا ، بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ، ثم يُعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ، ويثنى من غير التزام حروف تكون سجعاً ولا قافية ، ويسمى آخر الآيات منها فواصل إذ هي ليست أسجاعاً ، ولا التزم فيها ما التزم في السجع ، ولا هي قوافي أيضاً<sup>(٢)</sup> .

ويبدو أن ابن خلدون أول مَن أطلق هذه التسمية وقد طرق في نصه هذا أهم قضايا هذه الفكرة وكان موفقاً أيما توفيق حيث اشتق تسمية : « الفاصلة » من استعمال القرآن نفسه لهذه المادة في حديثه عن القرآن اسماً وفعلاً .. ولذلك فإن هذه التسمية ليست بغريبة عن روح القرآن ولغته .

(١) ردد هذه الشُّبه القاضي أبو بكر الباقلائي في كتابه « إعجاز القرآن » .

(٢) مقامة ابن خلدون ص ٦٦٢ .

أما المجيزون لورود السجع في القرآن ، فكثيرون كذلك ، منهم أبو هلال العسكري وضيء الدين ابن الأثير ، والعلوي صاحب الطراز وابن سنان الخفاجي ، والفرء من النحاة والزرکشي صاحب « البرهان » والسعد وابن النفيس .. وغيرهم .

وكان على هؤلاء أن يقوموا بعملين لإثبات مذهبهم ..

أولاً : الرد على شبه المانعين ، وأقوى أدلتهم - فيما نرى - أن السجع من المحسنات اللفظية ، والفواصل من المحسنات المعنوية ، وبين النوعين بون شاسع .

ثانياً : أن يأتوا بجديد من الأدلة التي تؤيد وجهتهم فضلاً عن رد شبه المانعين ، وهذا هو الذي فعلوه فلننظر في أقوالهم .

يقول ابن الأثير : « .. وإلا لو كان مذموماً - يعني السجع - لما ورد في القرآن الكريم ، فإنه قد أتى منه بالكثير حتى إنه ليؤتى بالسورة كلها مسجوعة ، كسورتي الرحمن والقمر ، وغيرهما .. وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور»<sup>(١)</sup> .

ويقول أبو هلال العسكري : « جميع ما في القرآن الكريم مما يجري على التسجيع والازدواج مخالف في تمكين المعنى وصفاء اللفظ ، وتضمن الطلاوة والماء لما يجري مجراه من كلام الخلق»<sup>(٢)</sup> .

وكذلك يقول صاحب « الطراز » ، وابن النفيس ، وهما إنما يدفعان ما ذكره المانعون من شبه ولم يأتيا بجديد يؤيد هذه الوجهة ، أي أنهما يدوران في مجال العمل الأول فحسب .

وجاء ابن سنان الخفاجي فأتى بالعملين معاً ، رد شبه المانعين ، وإثبات جديد من الأدلة ليس في وسع منصف إنكارها ، فكان أكثر النقاد حسماً

(١) المثل السائر لابن الأثير ص ٧٤ .

(٢) سر الصناعتين أبو هلال العسكري ص ٢٤٩ .

للخلاف ، وأشدهم حماساً لإثبات السجع في القرآن الكريم ، كان منهجه على النحو التالي :

١- بدأ بذكر مذاهب المانعين ، وذكر عبارة الرماني : « الفواصل بلاغة ، والسجع عيب » ، وفند أدلتهم واحداً واحداً .

٢- فرّق بين الفواصل والأسجاع تفرقة فنية بأن الأسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفصول أما الفواصل فمنها ما يكون متماثل الحروف ومنها ما يكون متقارب الحروف ، فالأول سجع والثاني فاصلة .

وكلا النوعين إما أن يأتي طبيعاً سهلاً تابعاً لمعناه ، وإما أن يأتي على الضد ، فالأول محمود والثاني مذموم .

والقرآن الكريم ، ورد فيه النوعان : المتماثل الحروف ، والمتقارب ، وكلاهما فيه من المحمود ويمثل لذلك بمطالع السور : الطور - طه - العاديات - الفجر - القمر - ويعقب على ذلك بقوله : « وكل أولئك جائز أن يسمى سجعاً لأن فيه معنى السجع ولا مانع في الشرع يمنع ذلك »<sup>(١)</sup> ، ويمثل للمتقارب بأمر الكتاب ، و« ق » ، ويقول : « مثل ذلك لا يسمى سجعاً لأن حروفه غير متماثلة » .

٣- خطأ الرماني في قوله : « الفواصل بلاغة والسجع عيب » لأنه إن أراد بالسجع ما يكون تابعاً للمعنى وكان غير مقصود ، فذلك بلاغة والفواصل مثله ، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعاني تابعة له ، وهو مقصود متكلف ، فذلك عيب والفواصل مثله .

٤- ويرد على شبهة تنزيه القرآن عما سواه فيقول : « وهذا غرض في التسمية قريب ، فأما الحقيقة فما ذكرناه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره في

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ١٩٤-١٩٧ .

كونه عرضاً وصوتاً وحروفاً وكلاماً عربياً ومؤلفاً ، وهذا مما لا يخفى فلا يحتاج إلى زيادة في البيان»<sup>(١)</sup>.

ومما يؤيد به المجيزون مذهبهم فوق ما ذكر ، أن السجع من الفنون التي يبين بها فضل الكلام ويقع لها التفاضل في البيان والفصاحة ، كالجناس ، والالتفات ونحوهما من الفنون البلاغية التي هي محل اتفاق من حيث ورودها فيه ، فكما جاز ورود هذه الفنون فيه جاز ورود السجع .

### ● دليل السجع من القرآن نفسه :

ثم لجأوا إلى القرآن نفسه يستخرجون منه أمثلة تدعم فكرتهم ، منها أن القرآن ورد فيه تقديم موسى على هارون في موضع ، وفي آخر قُدِّمَ هارون على موسى<sup>(٢)</sup> ، وموسى إذا قُدِّمَ على هارون فذلك جار على الأصل عندهم ، لأن موسى أفضل من هارون ، فإذا قُدِّمَ هارون على موسى ، وهو مفضول بالنسبة له فذلك عندهم - أي تقديم هارون على موسى - ليس إلا لفضيلة السجع ، لأن الفواصل فيه جارية على « الألف » .

ومنها : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ (طه: ١٢٩) حيث فصل بين المعطوف والمعطوف عليه من أجل السجع ، لأن تقدير الكلام : « ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً » .

### ● رد هذا الدليل :

وقد رد الباقلاني على الشبهة الأولى - وهو من نفاة السجع كما علمنا - فقال : « إن تقديم موسى على هارون مرة وتأخيرته عنه أخرى ، ليس من أجل السجع ، وإنما هو إيراد للقصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً ، وهذا من الأمر الصعب الذي تظهر فيه البلاغة»<sup>(٣)</sup>.

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ١٩٤-١٩٧ .

(٢) وورد ذلك في سورتي طه : ٧٠ ، والشعراء : ٤٨ .

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني على هامش الإتقان ص ٩٣-٩٤ .

وهناك اعتباران - لم يفظن لهما الباقلاني - يؤيدان مذهبه وهما أن أفضيلة موسى على هارون ليست على الإطلاق ، لأن هارون يفضل موسى بفصاحة اللسان وكمال هيئة النطق وتقدمه في السن عليه ، إذ يكبره بثلاث سنوات كما جاء ذلك في العهد الجديد<sup>(١)</sup> .

وكمال هيئة النطق وفصاحة البيان أمر له قيمته في مقام التبليغ ، وقد شهد به موسى نفسه كما حكى عنه القرآن : ﴿ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ (القصص: ٣٤) ، فلا يبعد أن يكون تقديم هارون على موسى من أجل هذا الاعتبار .

هذا على اعتبار أن التقديم يجري في القرآن على حسب الأفضلية ، ولكن الواقع أن ليس كل تقديم في القرآن جاريًا على أن المقدم أفضل من المؤخر بل للتقديم فيه أسرار أخرى غير هذا ، فالأولى عدم التمسك بها والتماس وجه آخر يتطرق معه الفهم في آفاق رحبة .

أما الشبهة الأخرى فلم يتعرض لها الباقلاني ، وقد عثرتُ في كشاف الزمخشري على توجيه للآية يحسن بنا الإشارة إليه .

وتوجيه الزمخشري للآية ذو شقين :

الأول : أن يكون « أجل مسمى » معطوفًا على « كلمة » وعليه ففي الآية فصل بين المتعاطفين .

الثاني : أن يكون معطوفًا على الضمير في « لكان » وعليه فلا فصل في الآية ، وتقدير المعنى حينئذ : « ولولا كلمة سبقت من ربك لكان الأخذ العاجل والأجل لازمين لهما كما كانا لازمين لعاد وثمود » .

والوجه الثاني هو الذي يهمننا من أجل قضيتنا هذه لأنه لا يلزم عليه تقديم ولا تأخير فيسقط الاستدلال به .

---

(١) الكتاب المقدس ٧ : ٧ .

والمسألة بعد - في رأي الإنصاف - بين نفاة السجع ومجازيه لا تعدو أن تكون خلافاً لفظياً ما دام الاثنان متفقين على تنزيه القرآن عن التكلف والتوعر والتقليد ، فلا ضير أن يقال : إن في القرآن سجعاً لكنه فصيح غير متكلف كما يقول أبو هلال : « مخالف في تمكين المعنى وصفاء اللفظ وتضمن الطلاوة والماء لما يجرى مجراه من كلام المخلوقين » ولا سبيل إلى إنكار السجع ففيه منه القدر الكثير والاتفاق في التسمية لا يضير ما دامت التفرقة بينه وبين غيره مقيسة بمعايير الجودة والحسن وخلوه من العيوب التي ألفوها في غيره .

### ● وظيفة الفواصل اللفظية :

للفاصلة في القرآن الكريم وظيفتان ، إحداهما لفظية - وستحدث عنها الآن ، وأخرى معنوية - وسيأتي الحديث عنها قريباً .

أما وظيفتها من حيث اللفظ فتعتمد على العوامل الآتية :

أولاً : أنها تحسّن للكلام وراحة للنفس عند التلاوة ، حيث يحسن السكوت عليها وقد كمل المعنى أو قارب الكمال ، بحيث يشهد الذوق بذلك ويدركه .  
ثانياً : تؤذن بانتهاء الآية وتميز بينها وبين التي تليها كما تميز قافية الشعر بيتاً من بيت مع اختصاص الفاصلة بأحكام الربط ودقة النظم وجمال التلاؤم .  
ثالثاً : تساعد الفاصلة على تلاوة القرآن مرتلاً مجوداً بأنغام أسرة ذات إيقاع جميل .. « وهذا الجمال التوقيعي في القرآن لا يخفى على أحد »<sup>(١)</sup> .

ومن أجل هذه الوظيفة اختصت الفاصلة بأمر ، وهي :

( أ ) ختمها - في الغالب - بحروف المد واللين - وإلحاق النون والميم بها ، وحكمته التمكن من التطريب ، قال سيبويه : « إنهم - أي العرب - إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون يريدون مد الصوت ، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا »<sup>(٢)</sup> .

(١) النبأ العظيم - دكتور محمد عبد الله دراز .

(٢) الكتاب لسيبويه : ٢٩٨/٢ .

وقد جاء في القرآن على أسهل موقع ، وأعذب مقطع<sup>(١)</sup> .

(ب) أن الحروف التي تقع بها الفواصل إما متماثلة أو متقاربة ، ولا تخرج عنهما كما قال فخر الدين الرازي ، وبهذا استكملت أداة الغناء وتم لها حسن التناسق وجمال الإيقاع .

(ج) أنها تتقدم عليها ألفاظ تُمهّد لها ، وتُعظّم من وقعها في السمع ، وتلك الألفاظ سماها المتقدمون رد الأعجاز على الصدور ، وسماها المتأخرون التصدير .

( د ) أن تتكرر في بعض المواضع فاصلة بعينها كما في سور : الرحمن والقمر والمرسلات ، لكن هذا التكرار ليس مختصاً بهذه الوظيفة الصوتية ، بل لها وللوظيفة المعنوية كما يبدو عند البحث والتأمل .

### ● وظيفة الفواصل المعنوية :

لابد للباحث عند الكشف عن وظيفة الفواصل من حيث المعنى أن يتبع جميع فواصل الآي فيه حتى يتسنى له أن يحصل على نتائج وقوانين لهذه الوظيفة ، وهذا ليس له من سبيل في بحثنا هذا ، ولذا نكتفي بذكر ما ييسر منها فيما يأتي :

قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (السجدة: ٢٦، ٢٧) .

والمعنى العام لهاتين الآيتين أن الناس غفلوا عن آيات الله ، وهي ظاهرة أمامهم يمرون عليها دون تذكر أو تدبر .

(١) بديع القرآن لابن المعتز ص ٩٣ .

وهذه الآيات التي غفلوا عنها نوعان : آيات تاريخية تُدرَك عن طريق السمع والرواية ، وأخرى حاضرة تُدرَك عن طريق الرؤية والبصر .

وقد ذكر القرآن مع كل نوع ما يلائمه ، فجاءت الفاصلة مع الآيات التاريخية والأثرية « أفلا يسمعون » وجاءت مع الآيات الحاضرة « أفلا يبصرون » .

ففي الأولى نفي للسمع على سبيل التوبيخ ، وفي الثانية نفي للبصر الذي هو سبيل المشاهدة والتبصر <sup>(١)</sup> .

وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مَخْرُجًا مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُسْتَبِيهَا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ۗ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ (الأنعام: ٩٧-٩٩) .

#### ● اختلاف الفواصل لاختلاف المعاني :

سبقَت هذه الآيات الثلاث تذكيراً للناس بنعم الله عليهم كل آية تُصوِّر لونا من ألوان النعم ، ومع ذلك جاءت فواصلها مختلفة ، وكل منها واقع موقعه من البيان البليغ ، فحساب النجوم والأفلاك في الأولى مختص بالعلماء فناسب أن تكون فاصلته : « لقوم يعلمون » .

وخلق الإنسان من نفس واحدة ، وتكثيره وتهيئة الرزق له ، وتدبير أمره في الحياة ثم القضاء عليه بالموت ، أمور لا تقوم على حدود رياضية ، بل على التأمل والاستنتاج ، وإمعان النظر وتكرار التأمل والفكر ، فناسب أن تكون فاصلته : « لقوم يفقهون » لأن الفقه أدق من مجرد العلم .

(١) من خزانة الأدب للحموي ص ٩٧ (بتصرف) .

أما الثالثة : فقد اختلفت بالنعم التي عليها تقوم مطالب الحياة الدنيا من إنزال الماء من السماء وسلوكه في الأرض عيوناً وإنبات النبات به والزروع والأشجار ، فيأكل الناس والأنعام مما تنبت الأرض ، وهذه النعم تقتضي شكر المنعم بها من المنعم عليه ، فكان - بحسب الظاهر - أن تكون فاصلته : « لقوم يشكرون » فعدل عنها إلى : « لقوم يؤمنون » لنكتة أوجبت ذلك .

لأنها كما تقتضي شكر المنعم بما تقتضي الإيمان بواهبها ، والإيمان أصل في الشكر فأوثر على الفرع ، واكتفى به لتضمنه إياه ، ومثل هذا التضمين يسمى : « المضاعفة » في علم البديع<sup>(١)</sup> .

قلنا : إن اختلاف الفواصل هنا كان لاعتبارات فيما هي فاصلة له من اختلاف في جنس المنعم به وقد تختلف الفاصلتان والمعنى واحد !

#### ● اختلاف الفواصل مع اتحاد المعنى :

ولكن في القرآن ما هو مثير للدهشة ، ذلك أن الفاصلتين قد تختلفان والمحدث عنه واحد في الموضعين ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم: ٣٤).

وقوله : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(النحل: ١٨) .

وقد أجاب ابن المنير على هذا الاختلاف في الفاصلتين مع اتحاد الموضوع فقال : « كأنه - أي الله - يقول : إذا حصلت النعم الكثيرة ، فأنت أخذها ، وأنا معطيها فحصل لك عند أخذها وصفان كونك ظلوماً وكونك كفاراً ، وحصل لي عند إعطائها وصفان : أنني غفور وأنني رحيم ، أقابل ظلمك بغفراني وكفرك برحمتي »<sup>(٢)</sup> .

(١) انظر بديع القرآن لابن أبي الإصبع - تحقيق الدكتور حنفي شرف .

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي .

وتخريج ابن المنير لاختلاف الفاصلتين مقبول ، لكنه لم يعالج الموضوع من جميع أطرافه لأن فيه سؤالاً ما زال قائماً حاصله : لماذا أوتر وصف الإنسان في سورة إبراهيم على وصف الله ؟ ثم لماذا أوتر - كذلك - وصف الله في سورة النحل على وصف الإنسان ؟

وعندي .. أن إيثار وصف الإنسان في سورة إبراهيم لأن السورة عدت كثيراً من مظاهر النعم ، فروعياً جانب الإنسان فيها ، وقليل من الناس الشكور ، فقررت السورة موقف سواد الناس من النعم .

وإيثار وصف الله في سورة النحل ، لأن السورة تحدثت عن كثير من صفات الله في موطن يدعى فيه المظلون وجود شريك لله - سبحانه - فناسب أن يراعى فيها وصف الله دون الإنسان .

وعلى عكس هذه المسألة قد يختلف موضوعا الحديث وتأتي الفاصلتان متفتحتين في الموضوعين ، ومثال ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَفِيدَ نَكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظُّهْمَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَفِيدُوا كَمَا اسْتَفَدْنَا الَّذِينَ مِّن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ (النور: ٥٨، ٥٩) .

وسر اتفاق الفاصلتين أن الغرض من الكلامين واحد ، هو أدب الاستئذان ، والمناسبة في الموضوعين واضحة لأن المعنى : الله عليم بما فيه صلاحكم حكيم فيما شرعه لكم .

وتكرير الفاصلتين بالفاظ واحدة فيه تأكيد للإنذار من المخالفة ومبالغة في امتثال المكلفين بما أرشدوا إليه .

## ● فواصل تحتاج إلى تأمل :

وقد تبدو الفاصلة - بحسب الظاهر - غير ملائمة للمقام - فإذا ما تؤملت ظهرت دقة الحكمة فيها ، وقد مثلوا لها بقوله تعالى : ﴿ إِن تَعَذَّبْتُمْ فَلَيْبَتُمُ عِبَادُكُمْ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (المائدة: ١١٨) .

وكان الظاهر يستلزم أن تكون الفاصلة هنا : « إنك أنت الغفور الرحيم » .  
وسر العدول : أنه لا يغفر لمن يستحق العقاب إلا من ليس فوقه أحد يردُّ عليه حكمه ، عزيز لا يُغلب .

وإذا كان الأمر - كذلك - ف « الحكيم » لا يضع الشيء إلا في موضعه فلا يُتهم في غفرانه لمن يستحق العقاب ، ففي « الحكيم » احتراس حسن لأن الحكمة فيما فعل .

ومن روائع الفواصل في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ إِن لَّكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿ (طه: ١١٨، ١١٩) .

والمناسب بحسب الظاهر أن يُقرن الجوع بالظما لأنهما نظيران ، والعرى بالضحاء لأنهما نظيران كذلك ، لكن خولف هذا الظاهر ولهذه المخالفة أسباب :

( أ ) فقد روعي مناسبة اللبس للشبع في أنهما أمران ضروريان لا غنى لأحد عنهما ، وروعي مناسبة الاستظلال للري في كونهما تابعين لهما ، فالري تابع للشبع ، والاستظلال تابع للباس <sup>(١)</sup> .

(ب) أجرى الخطاب بمقتضى العادة لأن العادة أن يقال : جوعان عريان ، كما أن الضاحي الذي لا يستر جسمه ساتر ، متعرض لحرارة الشمس فيشعر كثيراً بالعطش .. فصار « الضحاء » كأنه سبب فقرن به .

(١) خزنة الأدب للحموي : ٩٧/٢ (بتصرف) .

(جـ) في هذه المخالفة لمحة من لمحات البيان الأسر ، سماها البديعيون :  
« قطع النظير عن النظير » والغرض من ذلك تحقيق تعداد النَّعَم ، ولو قرن كل  
بمماثلة لتوهم متوهم أن المعدود نعمتان لا أربع .

### ● دليل من الشعر العربي :

وهذا السلوك البياني معروف لدى فحول الشعراء جاهليين وإسلاميين ، وقد  
أثار النقاد حوله جدلاً كثيراً ، واحتكموا فيما بعد إلى القرآن فيما نحن بصدد  
ذكره ، فاتخذوه معياراً للقياس فيما قاله الشعراء .

فقد قال امرؤ القيس الشاعر الجاهلي :

كَأَنِّي لَمْ أَزْكَبْ جَوَادًا لِلدَّهْرِ      وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خُلْخَالِ  
وَلَمْ أَنْبَأِ الزُّقَّ الرُّوِّيَّ وَلَمْ أَقْلَنْ      لِخَيْلِي كُرِّيَّ كُرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

فقطع ركوب الخيل عن كره ، وقطع تبطن الكاعب عن اشتراء الخمر ، مع  
أنه المناسب وغرضه تكثير ملاذه .. والفخر بها .

وقد تبعه المتنبّي وهو شاعر إسلامي فقال يمدح سيف الدولة :

وَقَفَّتْ وَمَا فِي المَوْتِ شَكٌّ لِوَأَقِيفِ      كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ  
تَمُرُّ بِكَ الأَبْطَالُ كَلْمَى جَرِيحَةً      وَوَجْهُكَ وَصَّاحٌ وَتَغْرُكُ بِأَسْمِ

ويذكر الثعالبي<sup>(١)</sup> أن سيف الدولة عاب قول الشاعرين امرئ القيس

والمتنبي لأن الوجه - عنده - أن يقول امرؤ القيس :

كَأَنِّي لَمْ أَزْكَبْ جَوَادًا وَلَمْ أَقْلَنْ      وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خُلْخَالِ  
وَأَنْ يَقُولَ المَتَنَبِّي :

وَأَنْ يَقُولَ المَتَنَبِّي :  
وَقَفَّتْ وَمَا فِي المَوْتِ شَكٌّ لِوَأَقِيفِ      وَوَجْهُكَ وَصَّاحٌ وَتَغْرُكُ بِأَسْمِ  
تَمُرُّ بِكَ الأَبْطَالُ كَلْمَى جَرِيحَةً      كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ

(١) بيتمة الدهر : ١٥/١ ، ١٦ .

وقد صَوَّب بعض النُّقاد نقد سيف الدولة ، منهم ابن طَبَّاطبَا إذ يقول : «هما بيتان حسنان ، ولو وضع مصراع كل واحد منهما مكان الآخر لكان أشكل وأدخل في استواء النسيج»<sup>(١)</sup>.

لكن المتنبّي لم يُسَلِّم بهذا الحكم في شعره ، وشعر امرئ القيس ولم يمنعه صدوره من السلطان أن يدفع التخطئة الموجهة إليهما ، وابن رشيق في «العمدة» ينتصر لقول المتنبّي بعد أن ساق الرواية بأسلوب آخر فقال : «قول امرئ القيس أصوب ، ومعناه أعز وأغرب ، لأن اللذة التي ذكرها إنما هي للصيد ، ثم حكى عن شبابه وغشيانه النساء ، فجمع في البيت معنيين ولو نظمه على ما قال المعترض لنقص فائدة عظيمة وفضيلة شريفة تدل على السلطان ، وكذلك البيت الثاني لو نظمه على ما قال لكان ذكر اللذة حشواً لأن الزق لا يُسبأ إلا للذة ، فامرؤ القيس وصف نفسه بالفتوة والشجاعة ، بعد وصفها بالتملك والرفاهة»<sup>(٢)</sup> .

وقد رجَّح بعض النُّقاد قول الشعارين على ما هما عليه لورود نظيرهما في القرآن الكريم<sup>(٣)</sup> وكان دليhle في ذلك آيتي «طه» المتقدمتين .

ذلك عرض موجز لدور الفواصل القرآنية من حيث الشكل «الألفاظ» والموضوع «المعنى» ، على أن لنا ملاحظة جديدة لم أر أحداً أشار إليها ، وسأرجئ الحديث عنها بعد إيجاز ما ذكره ابن أبي الإصبع من تقسيم الفواصل في القرآن .

### ● أقسام الفواصل :

قسّم ابن أبي الإصبع فواصل القرآن أربعة أقسام وهي :

(١) الموشح للمرزباني ص ٣٤ .

(٢) العمدة في صناعة الشعر ونقله لابن رشيق : ١٧٣/١ .

(٣) فن الإسجاع - على الجندي .

١- التمكين : وحقيقته أن يمهد للقريئة تمهيداً تأتي به السجعة متمكنة في مكانها غير نافرة ولا قلقة متعلقاً معناها بمعنى الكلام تعلقاً تاماً ، بحيث لو طُرِحَتْ لاختل المعنى ، ولو سُكِتَ عنها لأدركها السامع بطبعه .. ومثال ذلك من القرآن : ﴿ قَالُوا يَنْشُعِيبُ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ . (هود:٨٧) .

فقد تقدّم في الآية ذكر العبادة ، ثم تلاه ذكر التصرف في الأموال ، فجاءت الفاصلة على الترتيب : «الحليم» ، «الرشيد» . فالحليم باعتبار العبادة ، والرشيد باعتبار التصرف في الأموال .

ومثله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام:١٠٣) . فاللطيف يناسب عدم إدراك الأبصار له ، والخبير يناسب إدراكه لما سواه ومنها الأبصار .

٢- التصدير : وهذه تسمية المتأخرين ، والمتقدمون - كابن المعتز - سموه رد الأعجاز على الصدور ، وقد قسّمه ابن المعتز ثلاثة أقسام :

( أ ) توافق آخر الفاصلة مع آخر كلمة في صدر ما قبلها مثل : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْرَوُا الضَّلَٰلَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَّحَتْ بِحَرْبِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ . (البقرة:١٦) .

(ب) توافق الفاصلة مع أول كلمة ، في صدور ما قبلها ومثاله : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (آل عمران:٨) .

(ج) توافق الفاصلة مع إحدى كلمات الوسط ، ويسمى تصدير الحشو ، ومثاله : ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (الأنعام:١٠) .

٣- التوشيح : وهو أن يتقدم في أول الكلام ما يدل على الفاصلة دلالة معنوية ، ومثاله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَىٰ

الْعَلَمِينَ ﴿ (آل عمران: ٣٣) لأن لفظ «اصطفى» يقتضي أن تكون الفاصلة «العالمين» لأن المصطفى منه يجب أن يكون جنس المصطفى ، ويفرق بين التصدير والتوشيح - بهذا المعنى - أن التوافق في التصدير لفظي ، وفي التوشيح معنوي .

٤- الإيغال : وهو أن يختم الكلام بزيادة يتم المعنى بدونها ، ولكنها لا تخلو من الفائدة والتوكيد ، وقد خصه ابن رشيقي بالشعر ، والصحيح خلافه ، ومثاله من القرآن الكريم : ﴿ قَالَ يَنْقُورِ آتِبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ آتِبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (يس: ٢٠، ٢١) ، فقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ تأكيد لذلك المعنى ، وتقرير له على وجه أمكن وأمثل ، لأن اتباع المهتدى أمر مستحسن في نفسه تميل إليه النفوس ولا يختلف في فضله منصفان .

وقد تواترت الأخبار التي تدل على ما للفواصل من دور في خدمة المعاني تأكيداً وتقريباً وتوضيحاً ورمزاً ، ومؤدى تلك الأخبار واحد هو أن الفاصلة واقعة موقعها من الكلام بحيث لا يسد غيرها مسدها ، ولشدة تمكثها فإن الكلام الذي يتقدمها يستدعيها فنجد السامع يتوقعها ويكاد يحدد نوعها متى أدرك معنى سابقها .

ولا أرى ضرورة ذكر هذه الأخبار وأسانيدنا هنا ، فإن التأمل في فواصل القرآن أكبر شاهد عليه ، وقد ضربنا له بعض الأمثلة ، والآن أريد أن أتعرض لتلك الناحية التي أشرت إليها من قبل والتي لم أعثر على إشارة إليها من أحد وبالله التوفيق ..

### ● بحث جديد في الفواصل القرآنية :

ذلك أنني ألاحظ - وهذه فكرة أطرحها للدراسة والبحث الأوسع - أن الفاصلة القرآنية في الآيات الطويلة - سواء أكانت في السور الطوال أو القصار أو المتوسطة الطول والقصير - تأخذ سمة الاستقلال بمعنى أنها تأتي بعد تمام

معنى أو معان رئيسية في الآية ، فتكون هي بمثابة تعليق عليها وتؤدي حينئذ وظيفة التعليل أو الإنكار ، أو التوكيد أو الترغيب ، أو زيادة الإيضاح ، وهي غالباً ما تكون في هذا النوع جملة مستوفية الأركان ، ويغلب عليها أن تكون اسمية .

أما في الآيات القصيرة ، سواء أكانت في السور الطوال أو القصار ، أو المتوسطة الطول والقصر ، فتكون كلمة مكملة لمعنى الآية التي هي فيها معمولة من حيث الحكم النحوي لعامل فيها ، وليس لها سمة الاستقلال لأنها ليست جملة .

وقد تكون جملة قصيرة خاطفة ، فعلية أضمر فيها فاعلها ، ويغلب مجيء هذه الفواصل في السور القصار مما يسمونه « قصار المفصل » وما قارب ذلك . ونذكر الآن بعض الأمثلة لهذين النوعين ، ثم نحاول توجيه هذا الصنيع الأدبي توجيهاً بيانياً ، وبالله التوفيق ..

#### ● فواصل الآي الطوال :

قال الله تعالى من سورة البقرة : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْأُخْرَىٰ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاتِهِمْ مِنَ الَّذِينَ أُشْرِكُوا يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَجِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (البقرة: ٩٤-٩٨) .

فهذه خمس فواصل في خمس آيات وقعت الفاصلة فيها كلمة في جملة مستقلة بعد استيفاء المعاني الرئيسية لكل آية ، إلا فاصلة الآية الخامسة ، فقد بنى المعنى الرئيسي عليها ودخلت في أصل الدلالة .

وقال في سورة آل عمران : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٢٤﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُصَدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿

(آل عمران: ٩٨، ٩٩).

وهاتان آيتان جاءت الفاصلة فيهما كذلك كلمة في جملة أفادت معنى جديداً بعد استيفاء معنى ما تقدمها .

وقال في سورة النساء : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ۗ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ﴿٢٥﴾ وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَن يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتْيَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ۗ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۗ فَإِذَا أُحْصِنَ ۗ فَإِنَّ أَنتَ بِفِدْحَةٍ لِّفَعْلَيْنِ يُصِفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۗ ذَٰلِكَ لِمَنْ حَشَى الْعَنَتَ مِنْكُمْ ۗ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ﴿٢٦﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿ (النساء: ٢٤-٢٦).

فأنت ترى في هذه الآيات الثلاث - وقد اختلفت فيما بينها في الطول - أن فاصلة كل آية منها مستقلة ، فجملة الفاصلة في الأولى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ لأنها أعقبت تشريعاً خالصاً .

وفي الثانية : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لأنها أعقبت تشريعاً في حالات المخالفات التي توجب جداً يقام على المخالف ، وذلك يشعر بوقوع الخطأ من بعض المكلفين .

وفي الثالثة كانت الفاصلة : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ متفقة مع الأولى إلا في حكم الإعراب لأنها أعقبت بياناً لما يريد الله من التشريع للناس ، والغاية العظمى للشارع من فرض الأحكام .

### ● فواصل الآي القصار :

ذلك شأن الفاصلة الغالب عليها في الآيات الطوال ، وفي السور الطوال أو ما قاربها ، أما في الآيات القصار أو ما قاربها - وكثيراً ما يقع هذا في السور القصار أو ما قاربها - فإن الشأن مختلف .

ف نجد الفاصلة فيها كلمة معمولة لعامل تقدم في بناء الآية قبل استيفاء معناها الرئيسي فهي - إذن - داخلية في تأديته ، وإذا وردت الفاصلة في هذه الحالات « جملة » فهي جملة قصيرة قد يكتفى فيها بذكر أحد ركنيها ، ويضمّر الثاني إن كانت فعلية وقد تتعلق بكلمة الفاصلة معمولات لها فتحذف تلك المعمولات ، وتبقى الفاصلة ملحوظاً فيها ما أضمر أو ما حذف متعلقاً بها ، وقد ينتظم هذا النهج سورة كاملة ، وقد يقتصر على معظم آياتها .

هذا إجمال لا بد له من تفصيل ، ودعوى لا بد لها من دليل ، فلنأخذ في سوق الأمثلة ، ولعل خير شاهد على ذلك سورة الواقعة ، فهي تكاد آياتها كلها تكون من هذا النوع ونكتفي منها بما يأتي :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَنُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الشَّقَمَةِ مَا أَصْحَابُ الشَّقَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٩﴾ وَفِيهَا يَنُوحُونَ ﴿٢٠﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢١﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوبِ الْمَكْتُونِ ﴿٢٢﴾

جَزَاءٍ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيْمًا ﴿٧﴾ إِلَّا قِيلًا سَلْمًا سَلْمًا ﴿٨﴾ (الواقعة: ١-٢٦) .

هذه الآيات تمثل مطلع السورة ثم الحديث عن أحد الأزواج الثلاثة حديثاً تفصيلياً بعد الإشارة إليها إجمالاً في صدر السورة .

والمأمل يلحظ في فواصل هذه الآيات - كما هو الشأن في آيات السورة كلها تقريباً - أن دلالة الفاصلة جاءت جزءاً من المعنى الأصلي للآية ، ومكملة له ، وكلمة « الفاصلة » خاضعة في الحكم النحوي لعامل في الآية ، إلا في ثلاثة مواضع بدت فيها الفاصلة ذات دلالة مستقلة ، وهذه المواضع الثلاثة : « .. ولا ينزفون » .. ثم « .. يتخيرون » ثم « يشتهون » وفيما عدا ذلك فإن الفاصلة تختلف ، فهي فاعل في الآية الأولى ، وهي صفة لمحذوف واقع اسماً لـ « ليس » في الآية الثانية ، وهي صفة أو خبر بعد خبر في الثالثة ، ومفعول مطلق في الرابعة والخامسة ، وصفة في السادسة والسابعة ، وهكذا تجد الفاصلة جزءاً أساسياً من الآية ودلالاتها جزءاً من المعنى الأساسي الذي من أجله سيقت الآية .

وقبل سورة الواقعة . فإن « القمر » و « الرحمن » يغلب عليهما هنا الطابع لأن العلة - وهي قصر الآيات - مشتركة في المواضع الثلاثة .

ومثل هذه السور سورة الغاشية : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تَسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آٰبِيَّةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْرِيلِ كَيْفَ خَلَقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ

تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٦﴾ فَعَذِبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا جِسْمَهُمْ ﴿٢٩﴾ (الغاشية: ١-٢٦) .

### ● غرضان من سورة «الغاشية» :

هذه السورة تحقق لنا غرضين .

أحدهما : أن فاصلتها - غالباً - كلمة معمولة نحوياً لعامل في الآية ، فدلالتها - إذن - دلالة رئيسية بالنسبة للآية ، إذ هي مضاف إليه في الآية الأولى ، والمضاف فاعل لحديث الذي هو المعنى الرئيسي فيها ، لأنه المقصود بالتشويق بعد الاستفهام ، وخبر أو صفة في الثالثة ، وصفة لـ « نار » في الرابعة ، ولد « عين » في الخامسة ، ومستثنى في السادسة ، ومتعلق بـ « يغني » في السابعة . وهكذا لو تتبعنا آي السورة كلها ، وهذا هو الشأن الغالب في فواصل الآيات القصار أن تكون كلمات مفردة لها دور أساسي في تصوير المعنى الرئيسي في الآية أو المعاني الرئيسية إذا تعددت معانيها .

وثانيهما : أن خمس آيات منها جاءت فاصلتها جملة وهي لم تخرج عن أداء الدور الأساسي في بيان المعنى الرئيسي كذلك ، والذي نلاحظه عليها أنها جملة قصيرة قد أضمر فيها فاعلها ، وتلك الآيات هي :

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٢٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٢٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٢٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٣٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٣١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٣٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٣٣﴾ (الغاشية: ١٧-٢٣) ، فهذه الآيات الخمس جاءت فاصلتها جملة قصيرة ذكر أحد ركنيها « الفعل » ، وأضمر فيها الثاني : نائب الفعل في أربع ، والفاعل في واحدة .

بقي النوع الثالث من هذه الفواصل ، وهو ما تعلق فيه بكلمة الفاصلة معمولات غير الفاعل ، وحذفت مقدراً ذكرها ، أو ذُكرت ومع ذكرها لم تطل جملة الفاصلة بل حافظت على سرعة إيقاعها وقصرها .

وظاهر من هذا العرض أن هذا النوع على ضربين .

أولهما : ما ذُكرت فيه تلك المتعلقات وأمثله كثيرة ، منها قوله تعالى :  
﴿ حُدُوهُ فَغُلُوهُ ﴾ ٣٠ ثُمَّ أَلْحِمَ صَلَوَهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا  
فَأَسْلَكُوهُ ﴾ (الحاقة: ٣٠-٣٢) .

وقوله : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ٣  
وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَدَهَا ٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَنَهَا ٦ وَنَفْسٍ  
وَمَا سَوَّيَهَا ٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ٩ وَقَدْ خَابَ  
مَنْ دَسَّنَهَا ١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ١١ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ١٢ فَقَالَ لَهُمْ  
رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدمدم عليهم ربهم بذنبيهم  
فسَوَّيَهَا ١٤ وَلَا تَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ (الشمس: ١-١٥) .

بنيت فواصل هذه السورة جميعها على الهاء الذي هو ضمير المؤنثة الغائبة  
وقد اختلف موقع هذا الضمير من الإعراب لكنه لا يخرج عن حالتين :  
الأولى : أن يكون في محل الجر بالإضافة .

الثانية : أن يكون في محل النصب على المفعولية - وهذا هو الغالب عليه -  
وهو في الحالتين معمول لعامل أساسي في بناء الآية ، ومثل هذه السورة في  
اتحاد الفاصلة على حرف واحد سورة « الناس » .

وثانيتها : وهو ما حذف فيه المتعلق ومثاله : ﴿ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَقَاوِي ١  
وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ٢ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ (الضحى: ٦-٨) .

« وهذا النوع أقل وروداً من سابقه ، وهو موجود متناثراً مع غيره من  
الفواصل من النوع الأول ومثله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ١ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ٢ ﴾  
(الأعلى: ٢، ٣) .

وقوله : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴾ (النازعات: ٢٣) .

وقوله : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا  
وَقَبَ ٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ٤ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥ ﴾  
(الفلق: ١-٥) .

## ● والسر فيما أرى :

ولعل السر البياني في نظام الفواصل السابقة على النحو الذي شرحناه ما يلي :

أولاً : أن السور القصيرة تشتمل على آيات قصيرة كذلك ، والآية القصيرة تهدف إلى بيان معنى واحد أو عدة معان سريعة التصور والإدراك ، وهي بذلك ليس مجالاً لذكر الأفكار الطويلة التي تحتاج إلى إطالة بناء الجملة أو الآية التي تصورها ، ومن هنا فإن الفكرة الأساسية تتطلب انتظام جميع الألفاظ لتأدية تلك الفكرة الخاطفة الموجزة ، أما في الآيات الطوال - كما في آية التداين من سورة البقرة - فإن الفكرة فيها ذات أصول وفروع ، وهي أصل من أصول التشريع عالجت مشكلة كثيراً ما تحدث للناس فلم تترك فيها ثغرة أو تهمل جانباً ، ومثل هذه المعاني المتشابكة حرى بأن يعقب بجملة أو أكثر تؤكد تلك المعاني أو تحث عليها ، أو توبخ المخالفين لها ، ومن الخير أن نذكر الآية التي اتخذناها مقياساً هنا لتعدد المعاني وكثرتها .

## ● نص آية التداين :

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتَبُوهُ ۚ  
وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ  
فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِنْ  
كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُجِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ لِیْهِ  
بِالْعَدْلِ ۚ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ  
وَأَمْرَاتَانِ يَمْنَنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا  
الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبُ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تُكْتَبَ لَهُ صَغِيرًا أَوْ  
كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَدَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۚ إِلَّا  
أَنْ تَكُونَ بَجَرَّةٍ حَاضِرَةً تُدِيرُهَا وَيَتَنَقَّمُ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ  
بِكُمْ وَأَنْتُمْ وَاللَّهُ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ (البقرة: ٢٨٢) .

## ● تحليل آية «التدابين» :

فانظر كم مسألة تشريعية عالجتها الآية ، وكم معنى صورته ، ولم تنس أن تُبين علل بعض الأحكام الواردة فيها كعلّة اشتراط اجتماع المرأتين في الشهادة مع الرجل الواحد وهي أن تُذكر إحداهما الأخرى إذا ضلّت ، وذلك حرص من الإسلام على صيانة المرأة حيث لم يبح للرجل - وهو شريك لها في شهادة الواقعة - أن يذكرها ، فاحتاط لذلك بشهادة اثنتين لهذا الغرض ، وكاشتراط الرضا بشهود الواقعة من الطرفين المتعاقدين وكيان العلة في التشريع نفسه فهو أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة وأدنى الأرتاب في نفي الحق أو أجله المضروب ، وقد مزجت الآية التشريع في المعاملات بالتوجيه الأخلاقي في مواضع كثيرة منها .

ولذلك احتاجت الآية إلى فاصلة مستقلة ، وقد مهّد لها - أي لهذه الفاصلة - بما هو في قوة الفاصلة : ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

## ● دليل يؤيد هذه الفكرة :

ويؤيد هذه الفكرة أن الغالب في الآيات القصار أن سورها مكية النزول ، وللقرآن في مكة مجال غير مجاله في المدينة ، فالقرآن المكي كان يهدف إلى محاربة الضلال في العقيدة والسلوك فجاء بموضوعات تخدم هنا الغرض من التبشير والإنذار ، والترغيب والترهيب ، لذلك كانت آياته قصيرة العبارة حادة سريعة الإيقاع عنيفة الوقع ، وفي المدينة كان مجاله التشريع وإرساء قواعد المجتمع الإنساني من حيث العبادات والمعاملات والأخلاق الإنسانية فاتجهت سورة وآياته إلى الطول والاستقصاء إلا أن يخاطب اليهود أو المنافقين فيكر.

والدعوة إلى الإسلام في بدء أمرها كانت لا تطلب من الناس وقوفاً طويلاً لتأملها فسأقت لهم الإرشاد والتوجيه الإلهي في سورة وآيات قصار لسهولة فهمها وسرعة استيعابها ، لأنه كان بصدد تربية أمة خالية من أسس التربية

القويمة فخطبتهم بأوضح العبارات وأوجز المعاني كما يفعل الآن في تربية النشء حيث يتدرج معهم المربي من تصور وإدراك الحرف الواحد ، إلى الكلمة الواحدة السهلة التركيب إلى الجملة القصيرة وما يزال يرقى بهم من طور إلى طور حتى يصل بهم إلى فهم الفقرات ودراسة النصوص .

والم تأمل في قصار السور المكية يتبين هذه الحقيقة دون ما شك أو ريب ، وسبحان الله إذ يقول : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ (القمر: ١٧) .

### ٣- ألفاظ القرآن :

لألفاظ القرآن جانب كبير في سموه فوق أنماط التعبير الأخرى ، وتقوم هذه الألفاظ القرآنية على اعتبارات لم تتحقق لغيرها ، لذلك فإن النظر فيها لم يقتصر على جانب واحد ، بل يجد الباحث المجال فسيحاً أمامه حين يعتمد إلى دراسة ألفاظ القرآن ، ولذلك فإننا نحدد منذ الآن الجوانب التي سندرسها في هذا البحث الذي خصصناه لدراسة اللفظ القرآني وتلك الظواهر يمكن إجمالها في الآتي :

( أ ) روعة اللفظ القرآني في نفسه .

(ب) إصابته المقتل في الدلالة على معناه .

(ج) خاصته التعبيرية في القرآن .

وجدير بالذكر أن هذه الجوانب سيأتي الحديث عنها ممزوجاً ببعضه ببعض ، على أن نشير إلى كل ظاهرة حين ورودها في النماذج التي سنذكرها لبيان قيمة الألفاظ القرآنية الجمالية ودورها في قضية الإعجاز ...

### ● روعة اللفظ القرآني في نفسه :

« القرآن يتأنق في اختيار الألفاظ ، ويستخدم كلا حيث يؤدي معناه في دقة فائقة تكاد تؤمن معها بأن هذا المكان إنما خلقت له هذه اللفظة دون سواها ولذلك لا تجد في القرآن ترادفاً ، بل كل كلمة تحمل إليك معنى جديداً .

فالألفاظ فيه قوية عنيفة في مقام التهديد والوعيد ، رقيقة عذبة في مجال الترغيب والتهديب ، وهادئة حسنة في مقام التشريع والتفريع<sup>(١)</sup> .

ولهذا فإنك لا تجد في القرآن كلمة معيبة من حيث الصورة أو الاستعمال ، ولا تجد فيه لفظاً قلقاً مضطرباً أو نايياً في موضعه ، إلى آخر تلك العيوب التي يرددها نقاد الشعر وخبراء الأساليب .

وسلامة اللفظ القرآني من العيوب نعني بها أن الألفاظ في القرآن مختارة منتقاة لم يأت لفظ فيه حيثما اتفق ، بل تدبير حكيم عليم ، وإلى جانب انتقاء اللفظ القرآني من حيث صورة اللفظ نفسه - حروفه وحركاته وسكناته - فإن القرآن يؤثر استخدام الألفاظ القصار الثلاثية الأصول أو الرباعية الأصول ، والثلاثية الأصول فيه أوفر عدداً من الرباعية .

« أما أن اللفظة خماسية الأصول فهذا لم يرد منه في القرآن شيء ، لأنه مما لا وجه للعذوبة فيه ، إلا ما كان من اسم عُرِّب ولم يكن في الأصول عريباً ، كإبراهيم .... وإسماعيل ..... وطالوت ... وجالوت .. ونحوها . ولا يجيء فيه كذلك إلا أن يتخلله المد كما ترى ، فتخرج الكلمة وكأنها كلمتان»<sup>(٢)</sup> .

وتحقيقاً لهذه الصفة - انتقاء الألفاظ وعذوبتها في القرآن - فإن القرآن يعمد إلى تهذيب ما قد يُعاب من اللفظ إذا دعا بلاغي لوروده فيه ، ولهذا فإنك ترى في القرآن كلمات يشهد الذوق بحسنها لأنها هُذِّبَتْ ووُضِعَتْ وضِعاً مُحْكَمًا فيه ، بينما تراها في غيره معيبة شاذة .. وذلك بشهادة النقاد أنفسهم ، وليس ذلك مجاملة منهم للقرآن لما له من قداسة ، بل لأسباب فنية أوضحوها ووجَّهوا إليها الأنظار .

(١) بلاغة القرآن - أحمد أحمد بدوي - ص ٥٧ (بتصرف) ط . نهضة مصر .

(٢) إعجاز القرآن - مصطفى صادق الرافعي ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

● أَلْفَاظٌ حَسَنَةٌ فِي الْقُرْآنِ وَعَيِّبَتْ فِي غَيْرِهِ :

من ذلك كلمة «مقاعد» ، فقد عابها النُّقَادُ فِي شِعْرِ الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ حَيْثُ قَالَ :

أَعْرَزْتُ عَلَيَّ بِأَنَّ أَرَاكَ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ جَانِبَيْكَ مَقَاعِدُ الْعُوَادِ

قال ابن سنان الخفاجي ينقده : «فإيراد - مقاعد - في هذا البيت صحيح ، إلا أنه موافق لما يُكره ذكره في مثل هذا الشأن ، لا سيما وقد أضافه إلى مَنْ يَحْتَمَلُ إِضَافَتَهُ إِلَيْهِمْ ، وَهَمَّ الْعُوَادُ ، وَلَوْ انْفَرَدَ لَكَانَ الْأَمْرُ فِيهِ سَهْلًا ، فَأَمَّا إِضَافَتُهُ إِلَى مَا ذَكَرَهُ فِيهَا قَبْحٌ لَا خِفَاءَ فِيهِ»<sup>(١)</sup> .

ونقد ابن سنان لهذه الكلمة وجيه لا أظن أحداً يخالفه فيه لأن المقام يقتضي العدول عن مثل هذه الكلمة جرياً مع الذوق وصحة المعنى .

والأساس الذي بنى عليه الخفاجي نقده هو أن الكلمة يُشْتَرَطُ فِي فَصَاحَتِهَا - عِنْدَهُ - أَلَّا يَسْبِقَ التَّعْبِيرُ بِهَا عَنْ مَعْنَى يُكْرَهُ ذِكْرُهُ ، وَقَدْ حَكَمَ بِسَلْبِ الْفَصَاحَةِ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْكَلِمَاتِ نَزُولاً عَلَى هَذَا الْاِعْتِبَارِ .

وقد وردت هذه الكلمة - مقاعد - في القرآن الكريم عذبة رشيقة ، وذلك في مواضع منها : ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ ﴾ (الجن:٩) .

وقوله : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ ﴾

(آل عمران:١٢١) .

فالمقاعد - هنا - في الموضعين بمعنى المنازل ، ولا يمكن أن يفهم منهما المعنى الذي من أجله كره النقاد استعمال هذه الكلمة ، لأنها لم تضاف إلى ما يمكن أن يفهم من إضافتها إليه ذلك المعنى المستكره .. وذلك سر الجمال في هذين الموضعين<sup>(٢)</sup> .

(٢-١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ٧٥ ، ٧٦ .

ومن ذلك - أيضاً - كلمة « تُوذِي » . فقد عابوها في قول المتنبّي :  
**تَلْدُ لَهُ الْمَرْوَةُ وَهِيَ تُؤْذِي وَمَنْ يَغْشَقُ يَلْدُ لَهُ الْفَرَامُ**  
 والسبب أن الشاعر قطع الكلمة - وهي ثقيلة - عن الإضافة على العكس من  
 كلمة « مقاعد » فإن عيبها جاء من إضافتها ، ولو أضافها لخفف من ثقلها .  
 وقد جاءت في القرآن في مواضع هي فيها حسنة رائقة ، وذلك في قوله  
 تعالى : ﴿ **إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَجِءْ مِنْكُمْ** ﴾ (الأحزاب: ٥٣) .  
 لذلك كانت هذه الكلمة - هنا - أجمل منها في بيت المتنبّي ، والحكم في  
 ذلك للأذن الموسيقية<sup>(١)</sup> .

فالقرآن - كما ترى - استعمل الكلمة واقعة على مفعول « النبي » فخفت  
 ورشقت وهي في قول المتنبّي مقطوعة عن الإضافة .

ومن ذلك كلمة « ضِيْزَى » ، وهي أغرب ما في اللغة من كلمات ، بله  
 القرآن ، ولقبح هذه الكلمة لم يستعملها عربي فيما وصل إلينا من أقوالهم  
 وأشعارهم ، ومع ذلك فإنك تجد لها من الحسن في القرآن أضعاف ما ترى  
 لها من القبح والغرابة في غيره .

قال تعالى في سورة النجم موبخاً أهل الشرك : ﴿ **أَلَكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى** ﴾  
**تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيْزَى** ﴾ (النجم: ٢١، ٢٢) .. « ولحسن هذه الكلمات في هذا  
 الموضع عدة اعتبارات :

١- أن السورة التي وردت فيها فاصلة لإحدى أيها ألفية الفواصل ، فجاءت  
 الكلمة ذات نغم صوتي ملتئم ، مع فواصل الآي الأخرى ، ولو وضع  
 موضعها « جائرة » وهي قسيمتها في الدلالة لجارت على الموضع وفاتت  
 المناسبة وحسن الجوار ، فجيء بها - أي ضيْزَى - لذلك الالتئام والتناسق  
 الصوتي الذي لا يخفى أثره .

(١) النقد الأدبي - أحمد أمين : ٥٦/١ .

٢- أنها جاءت معلقة على سلوك معيب حيث جعلوا لله الإناث - سبحانه - ولهم الذكور ، مع الإصرار على قتلهم البنات .

٣- أن الآية الأولى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴾ (النجم: ٢١) اشتملت على استفهام إنكاري ، والآية الثانية : ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ اشتملت خاتمتها على التهكم ، وهما معنيان متناسبان ، أولهما كالمقدمة لثانيهما ، وهذه الكلمة الغربية - ضيزى - أليق ما تكون دلالة على التهكم ، لأنها وضعت حالة المتهمم في إنكاره من إمالة الرأس واليد بهذين المدين منها إلى الأسفل والأعلى ، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية .

٤- وإن تعجب فعجب نظم هذه الكلمة نفسها ، واثلافها مع ما قبلها إذ هي مقطعان أحدهما مد ثقيل ، والآخر مد خفيف ، وقد جاءت عقب غنتين في « إذن » و« قسمة » إحداهما خفيفة حادة ، والأخرى ثقيلة متفشية ، فكأنها بذلك ليست إلا مجاوبة صوتية لتقطع موسيقي ، وهذا معنى رابع للمعاني الثلاثة الأول<sup>(١)</sup> .

٥- وخامس هذه المعاني أن هذه الكلمة الدالة على المعاني الأربعة المذكورة إنما هي أربعة أحرف أيضاً<sup>(٢)</sup> .

### ● سمات أخرى لحسن اللفظ في القرآن :

ومن مظاهر تهذيب الألفاظ في القرآن أن الحركات النحوية والصرفية ، تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف والكلمات فيما يثبت لها من أمر الفصاحة ، إذ يهين بعضها لبعض ، ويمهد له ، حتى إن الحركة الثقيلة لسبب من أسباب الثقل المعروفة تعذب وتستساغ في التركيب القرآني .

(١) إعجاز القرآن - للرافعي .

(٢) نقلنا هذه الدراسة في شيء من التصرف من كتاب « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية » للرافعي ، ص ٢٦٢ .

وذلك مثل كلمة «النذر» في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ (القمر: ٣٦) ، فكلمة «النذر» ثقيلة منفرة ، بما فيها من تشديد النون ، وتوالي الضمات ، فكان التمهيد في صدر الآية لذلك بالقلقلة في الدال من «لقد» والطاء من «بطشتنا» وبثلاث عشرة فتحة متناثرة على الحروف من واو «ولقد» إلى راء «فتماروا» ، وبالمد في ألف «بطشتنا» كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات ، وترويض للسان عليه ليكون ثقل الضمة مستخفاً بعد ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة .

وقد جاءت راء «تماروا» مساندة لراء «النذر» حتى إذا انتهى اللسان من هذه انتهى إلى مثلها ، فتخف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه ، ثم انظر لتلك الغنة التي سبقت الطاء في نون «أنذرهم» وفي ميمها ، وللغنة الأخرى التي سبقت الدال في «النذر» (١) .

وقد تمهد الحروف لإيثار كلمة على أخرى تشترك معها في أصل الدلالة ، ومن ذلك فيما يبدو قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ (الأحزاب: ٤) .. حيث لم يقل «في بطنه» .

كما في قوله تعالى حكاية عن امرأة عمران : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ (آل عمران: ٣٥) ، وكان يمكن أن تقول : «في جوفي» وذلك لأن حرف الجيم تكرر في الآية الأولى مرتين - كما ترى - فناسب ذلك إيثار الكلمة التي تبدأ بالجيم «جوفه» على ما خلت منه «بطنه» ، وقد غفل أحد الباحثين عن هذا التوجيه عند حديثه عن الفروق بين الكلمتين في الاستعمال القرآني (٢) .

ومن مظاهر التهذيب في ألفاظ القرآن أن ما يختل فيه شرط الفصاحة بالطول من الكلمات يأتي عذباً جميلاً فيه لبناء تلك الكلمات في أسلوبه على نسق بديع يجنبها ثقل التطويل .

(١) إعجاز القرآن - للرافعي - ص ٢٦٢ .

(٢) هو أحمد أمين : انظر النقد الأدبي ج ١ .

ففي القرآن كلمتان بلغت حروف إحداهما عشرة أحرف وهي : ﴿ لَيْسَتْ حَلْفَنَّهُمْ ﴾ (النور: ٥٥) ومثلها ثقيل على اللسان ناب في السمع ، أما هي فقد وقعت موقعا عذبا لا ثقل فيه ولا نبو وذلك لأن مخارج حروفها فيما بينها متباعدة ، ونظم حركاتها ساحر ، إذ تتكون من أربعة مقاطع - ينتهي كل مقطع بسكون يسكن معه النفس فتخرج الكلمة متجزئة كأنها أربع كلمات لا كلمة واحدة .

والكلمة الأخرى بلغت حروفها تسعة أحرف ، وهي : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ (البقرة: ١٣٧) ، وجاءت ذات ثلاثة مقاطع ، وقد تكرر فيها الياء والكاف ، وتوسط الكافين مد هو سر الفصاحة في الكلمة كلها ، لأنه خفف من اجتماع المثلين ، كما فصل بين اليائين بالكاف الأولى والفاء ، وانتهى كل مقطع من مقاطعها الثلاثة بالسكون كذلك ، فنزلت منزلة ثلاث كلمات ، كما ترى ، وعذبت رغم طولها .

#### ● سياسة لغوية :

وهذا - أعني سكون المقاطع - سياسة لغوية مطلوبة في تهذيب بعض الألفاظ التي يلمح فيها نوع من الثقل بسبب الطول ، أو توالي الحركات ، ألا ترى أن النحاة يلجأون إلى مثل هذا حينما يُسكَّنون ما أصله التحريك فرارا من ذلك الثقل ، وبذلك حكموا بتسكين آخر الماضي إذا اتصل به ضمير رفع متحرك مثل : « ذهب » ، وعِلَّتْهم في ذلك كراهة توالي أربعة متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة .

ولك أن تقيس على هاتين الكلمتين في سياسة التقطيع والتسكين في المقاطع كلمتين أخريين جاءتا في القرآن إحداهما ذات عشرة أحرف - مثل الأولى - والثانية ذات سبعة أحرف .

أما الأولى فهي قوله تعالى : ﴿ أُنزِلَ مُكْمُومًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴾ (هود: ٢٨) ، وأما الثانية فهي قوله تعالى حكاية عن إبليس يخاطب أوليائه يوم القيامة : ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ (إبراهيم: ٢٢) .

ولك أن تدبر اللسان بهما جميعاً فهل تجد من ثقل أو نبو ، إن اللسان ليكرهما كراً وقد مُهّد السبيل له ليسهل عليه ذكر الكر .

### ● توجيه القرآن لانتقاء الألفاظ :

وأعجب العجب أن القرآن لا يكتفي بانتقاء الألفاظ في نماذجه ، بل هو يشرع في ذلك صراحة وينبه إلى خطأ وقع لاستعمال اللفظ في غير موضعه ويرشد على بديله ، وذلك في موضعين فيه :

أحدهما قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا آنظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٠٤) .

وثانيهما قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الحجرات: ١٤) .

ولقد أبانت كتب التفسير سر هذا الخطأ في الموضعين ، ففي سورة البقرة نهى القرآن المسلمين أن يقولوا : «راعنا» ؛ لأن هذه الكلمة كانت لليهود كلمة مثلها يستعملونها في السب ، وأصلها كلمة عبرانية معناها «أحمق» ، فلما سمع اليهود المسلمين يقولون هذه الكلمة افترضوها ، ومن هنا ورد النهي عنها وجيء لهم بلفظ يعدله في المعنى لا شبهة فيه لأحد ، وهو «أنظرنا» لعدم التشبه باليهود فيما يقولون ، ولكي يسد عليهم منافذ الطعن والسباب<sup>(١)</sup> .

فالخطأ - هنا - ملاحظ فيه تنزيه مخاطبات المسلمين عما يردده أعداؤهم من اليهود مما ليس معنى مشين .

أما الخطأ في قول الأعراب : «آمنّا» فإنّ اللغة والشرع يفرقان بين معنى اللفظين ، فالإيمان الذي اشتقوا منه الفعل «آمنّا» مطلوب في تحقيقه أمران : نطق باللسان ، وتصديق بالقلب ليواطىء القول الاعتقاد ، وهم لم يكونوا كذلك

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ١٣٠/١ .

لأن نصيبهم من الشريعة حين ادعوا ذلك لا يجاوز القول باللسان والمتابعة  
الظاهرين بدليل : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٤) .

وحالهم هذه ينطبق عليها معنى الإسلام - الذي اشتق القرآن منه في توجيههم  
«أسلمنا» - إذ هو حقيقة الامتثال الظاهري للشريعة من قول أو عمل ، لذلك  
وجههم القرآن إلى أن يقولوا قولاً مطابقاً لحالهم وهو «أسلمنا»<sup>(١)</sup> .

### ● ملحظ بياني دقيق :

والخطأ هنا لغوي اصطلاحي كما ترى .

وفي الآية ملحظ بياني دقيق إذ أمر الله رسوله أن يقول لهم : ﴿ لَمْ تُوْمِنُوا ﴾  
وعطف قوله تعالى : ﴿ وَلٰكِنْ قَوْلُوا اسْلَمْنَا ﴾ يقتضي أن يكون المعطوف عليه :  
« لا تقولوا آمناً » ليعطف القول على القول ، وإنما عدل عنه كراهة أن يقع  
النهي بحال على ما هو محمود ومطلوب<sup>(٢)</sup> ، ولذلك لم يأت مما شأنه كذلك  
إلا مع القرينة القوية الصارفة عن كل وهم مثل قوله تعالى : ﴿ لَا تَقْرَبُوا  
الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ (النساء: ٤٣) ، وقوله : ﴿ قَوْلًا  
لِّمُصَلِّينَ ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ (الماعون: ٥، ٤) .

### ● إيثار أحد اللفظين للمناسبة :

ولعل من روائع اختيار القرآن لألفاظه ما ذكره ابن أبي الإصبع في قوله  
تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ (القصر: ٤٤)  
فإنه سبحانه وتعالى لما نفى عن رسوله وحبيبه ﷺ كونه بالمكان الذي قضى له  
فيه بكلمة الأمر ، عرف المكان بالجانب الغربي ، ولم يصفه بـ «الأيمن» كما  
قال في أمر موسى عليه السلام : ﴿ وَتَنذَيْتَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾  
(مرم: ٥٢) أدباً منه سبحانه وتعالى مع نبيه ﷺ أن ينفي عنه كونه بالجانب  
الأيمن .

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٢٩٩/٤ .

(٢) استقينا هذا التوجيه من تفسير الكشاف للزمخشري مع التصرف .

فالمكان الذي نودي منه موسى عليه السلام يمكن أن يدل عليه بوصفين: كونه الجانب الأيمن ، وكونه الجانب الغربي ، فأثر القرآن في الإخبار عن موسى «الجانب الأيمن» في تعريف المكان لأنه كان قاراً عليه ، وفيه قضي إليه ربه أمر الرسالة ، ففي ذلك تشریف له .

وكان في خطاب محمد ﷺ التعريف بالجانب الغربي لأنه لم يكن قاراً عليه والكلام مسوق لنفي الكينونة ، واستعمال الجانب الغربي دون الجانب الأيمن في حال نفي للكينونة أليق بمقام الرسول الكريم لخلوه من نفي كونه بالأيمن ، ففي العبارة أعجب احتراس كما يقول ابن أبي الإصبع<sup>(١)</sup> .

### ● كنايات القرآن عما يقبح التصريح به :

ومن شواهد اختيار اللفظ في القرآن الكريم أنه يُكْنَى عما يكون بين الرجل وزوجه بألفاظ غاية في النزاهة والشرف ، فمرة يُكْنَى عنه بالإتيان ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْ تُشَفَّعُوا ﴾ (البقرة: ٢٢٣) .

ومرة يُكْنَى عنه بالرفث ، قال : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ (البقرة: ١٨٧) .

وأخرى بالتغشية ، قال : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّيْنَهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ (الأعراف: ١٨٩) .

وتارة بالقربان ، قال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ ﴾ (البقرة: ٢٢٢) .

وأخرى باللمس ، قال : ﴿ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ (النساء: ٤٣) .

كما كنى عنه بالمس وذلك في الموضعين الآتيين : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنْىْ يَكُونُ لى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنى بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىْ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٤٧) .

وقال : ﴿ قَالَتْ أَنْىْ يَكُونُ لى غُلْمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنى بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بِغِيًّا ﴾ (مریم: ٢٠) .

(١) بديع القرآن - تحقيق الدكتور محمد حنفي شرف ص ٩٤ (بتصرف) .

وظاهر أن هذه الإطلاقات إنما هي في جانب الحلال ، ومثلها التكنية عنه  
بالنكاح في مواضع كثيرة ، كقوله تعالى في سورة النساء : ﴿ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ  
لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلثَ وَرُبَعًا ﴾ (النساء: ٣) .

ويطول بنا الحديث لو رحنا نذكر مواضع ورود هذه الكلمة فلنكتف بهذا  
المثال .

والنكاح في عُرف الفقهاء فيه مذهبان : حقيقة في الوطاء ، مجاز في العقد  
أو العكس ، وجاء في مفردات الراغب : « أصل النكاح للعقد ، ثم استُعير  
للجماع ، ومحال أن يكون في الأصل للجماع ثم استُعير للعقد ، لأن أسماء  
الجماع كلها كنيات لاستقباحهم ذكره كاستقباح تعاطيه ، ومحال أن يستعير  
من لا يقصد فحشاً اسم ما يستفظعونه لما يستحسنونه »<sup>(١)</sup> .

فالراغب يمنع أن يراد بالنكاح غير العقد حقيقة ، والاستعمال القرآني  
لا يمنع من إرادة هذا المعنى ، فالنكاح فيه صالح لحمله على كلا المعنيين :  
العقد والوطء ، وقد يقوى حمله فيه على الوطاء مثل قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا  
فَلَا حِلَّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ (البقرة: ٢٣٠) ، إذ يرى الفقهاء أن  
الزوج الثاني لا يحللها للأول بمجرد العقد عليها ، بل لابد من الخلوة بها ،  
ويقوى من هذا المعنى قوله ﷺ لامرأة تسأل هل تحل لزوجها الأول بدخول  
الثاني دون الوطاء : « لا .. حتى تذوق عُسَيْلَتَهُ ويذوق عُسَيْلَتِكَ » .

ومن أبدع تعبيرات القرآن عن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ  
لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ (البقرة: ٢٣٥) ، فإن السر مجاز عن الوطاء ، والوطء مجاز  
عن العقد ولذا فهم يسمونه مجاز المجاز<sup>(٢)</sup> .

والعلاقة في الأول الملازمة ، لأن الوطاء لا يحدث إلا سرّاً ، وفي الثاني  
المسيبية لأن الوطاء مسبب عن العقد ، كما يُطلق عليه المباشرة قال : ﴿ فَأَلْقِنِ  
بَنِيْرُوْهُنَّ وَأَتَّبِعُوْا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ ﴾ (البقرة: ١٨٧) .

(١) مفردات القرآن - الراغب الأصفهاني ص ٥٠٦ .

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي : ٢٦٨/١ .

ذلك في جانب الحلال ، أما في جانب الحرام فقد شاع استعمال كلمة «الزنا» وهي كلمة لا ابتدال فيها وتقابل كلمة «النكاح» في جانب الحلال ، قال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء: ٣٢) ، وقد تستعمل كلمات أخرى في الدلالة على هذا المعنى مثل الفاحشة والبهتان والبغاء والسوء والسفاح والإفك ، قال : ﴿ وَاللَّيْ يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشِرُّوهُنَّ عَلَيْهِنَّ آزْوَاجٌ مِنْكُمْ ﴾ (النساء: ١٥) .

وقال : ﴿ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بَهْتِنًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ١٥٦) .

وقال : ﴿ وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَىٰ الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ (النور: ٣٣) .

وقال : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ (يوسف: ٢٥) .

وقال : ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ (المائدة: ٥) .

وقال : ﴿ إِنْ الَّذِينَ جَاءُوا بِآلِفِكَ غَضَبًا مِنْكُمْ ﴾ (النور: ١١) .

قارن بين كنيات النوعين - الحلال والحرام - تجد ما أطلقه القرآن على الحلال كلمات تبعث في النفس الرغبة والارتياح ، وما أطلقه على الحرام كلمات تثير في النفس شعور النفرة والارتياح ، ومتى بلغ أسلوب ما هذه المنزلة من التأثير القوي كان نموذجاً ناجحاً وأدبياً رفيعاً ، فما بالك بالقرآن وهو في أعلى درجات البلاغة والقوة .

#### ● شبه مردودة :

ولعل قائلاً يقول : إذ حالكم التوفيق فيما ذكرتموه من نزاهة ألفاظ القرآن وشرفها فيما سقتم من أمثلة ، فماذا تقولون في ذكر القرآن «الفرج» و«الفروج» مراداً بها مواضع يكره ذكرها ؟ وماذا تقولون في قوله تعالى : ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِبِ ﴾ (النساء: ٤٣) ؟ .

وللإجابة على هذه الشبهة نقول :

وردت كلمة «الفرج» في القرآن الكريم مراداً بها موضع العِرض في المواضع الآتية : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٩١) .

ومثل هذه جاء قوله تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهَا ذِكْرُهَا فِي الْكِتَابِ ﴾ (التحریم: ١٢) .

وهاتان الآيتان في شأن مريم لإثبات العفة لها ، وصونها عن كل قبيح فهما إخبار عن أمر قد كان .

وقريب منه في الإخبار عما هو واقع قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْئَاتِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥ ، والمعارج: ٢٩) .. وقد وردت هذه الآية مرتين في القرآن الكريم .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ (الأحزاب: ٣٥) .

ووردت هذه الكلمة في سياق أمر تشريعي على طريقة الإنشاء لا الإخبار عما وقع ولا عن ما هو واقع ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (١) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ

(النور: ٣٠، ٣١) .

كما وردت فيه مراداً بها غير هذا المعنى ، قال تعالى : ﴿ وَمَا هَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾

(ق: ٦) .

وقال : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ (المرسلات: ٩) .

وظاهر من الآيتين الفرق بين المعنى الذي تعنيه الآيات الأولى .. والمعنى الذي تعنيه هاتان الآيتان ، إذ المراد فيهما بـ « الفروج » : الشقوق والفتوق<sup>(١)</sup> .

### ● وجوه الرد :

وليس ورود هذه الكلمة في القرآن بخارج عما ثبت لألفاظه من النزاهة والشرف وذلك لعدة أمور :

(١) مفردات القرآن - الراغب الأصفهاني مادة « فرج » .

أولاً: أن هذه الكلمة لم توضع وضعاً خاصاً للدلالة على موضع العِرض ، بل هي كناية عنه شاعت فيه حتى قربت من الحقيقة العُرفية .

هذا لأن الكلمة في اللغة تقع مشتركاً لفظياً بين عدة مسميات ، وقد جاء في المفردات : «الفرج ، والفرجة : الشق بين الشيئين كفرجة الحائط ، والفرج ما بين الرجلين وكنى به عن السواة حتى صار كالصريح فيها ، قال تعالى : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ (الأنبياء: ٩١) ، ﴿ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥) ، ﴿ وَحَافِظَنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ (النور: ٣١) واستعير الفرج للثغر ، وكُلُّ موضع مخافة .. وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ (ق: ٦) أي شقوق وفتوق ، قال : ﴿ وَإِذَا أَلْسَمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ (المرسلات: ٩) : أي انشقت . والفرج : انكشاف الغم ، يقال : فرج الله عنك ، ورجل فرج : لا يكتُم سره ...<sup>(١)</sup> .

فأنت ترى من هذا العِرض أن هذه المادة : « فرج » تطلق على عدة معان ، وموضع العِرض من الإنسان واحد منها ، وقد علمنا أن إطلاقها عليه من قبيل الكناية لا التصريح ، وأن عِلَّةَ الإطلاق ملحوظة فيه بحسب الوضع العام في اللغة .

ثانياً : أن هذه الكلمة لم تُستخدم في القرآن إلا في سياق الإحصان أو الحفظ بحسب ما كان كما في الحديث عن مريم ابنة عمران ، أو بحسب ما هو كائن كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥) ، أو بحسب ما ينبغي أن يكون كقوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ (النور: ٣٠) ، ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ (النور: ٣١) .

ثالثاً : أن ورود هذه الكلمة في القرآن إما في موضع مدح أو تشريع ، المدح فيما كان أو فيما هو كائن ، والتشريع فيما ينبغي أن يكون ، فلذكرها

(١) مفردات القرآن - الراغب الأصفهاني مادة « فرج » ص ٢٧٥ .

- إذن - داع قوي لأنها في مقام المدح - حيث قرنت بالإحسان أو الحفظ - هي دليل العفة التي من أجلها كان المدح .

ولأنها في مقام التشريع : الموضع الذي يجب أن يُصان ويُحفظ فصرح بها اعتناءً بأمرها وحتى لا يحتمل المقام سواها .

أما قوله تعالى : ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ ﴾ (النساء: ٤٣): فإن « الغائط » هو المكان الذي تقضى فيه الحاجات ، فالتعبير كناي - كما ترى - والمقام مقام تشريع ، ومع هذا فقد عدل القرآن عن الاسم الصريح إلى ما هو وارد مورده حفظاً للفظه من الابتذال ، ولو فعل لكانت الضرورة التشريعية خير مبرر .

ثم انظر إلى قوله تعالى في شأن آدم وحواء حين أضلهما الشيطان فأكلا من الشجرة التي حرّمها الله عليهما : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءُ تُهْمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ (طه: ١٢١)، فإن الأكل كان سبباً في التبرز فعدل عنه إلى ذكر السوءات .

ويبدو في هذا التعبير لون من القسوة لأن المقام مقام معصية وعقاب فهل ترى أدباً في الحديث أروع من هذا الأدب .

#### ● إصابة اللفظ القرآني :

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ (هود: ٤٤) فقد آثر الاستواء على غيره ولم يقل : رست أو استقرت ، لأن الاستواء يدل على معنى لا يدل عليه واحد من نظيريه المذكورين .

فالاستواء يدل على الاستقرار أو الرسو المطمئن مع اعتدال الوضع ، أما الرسو والاستقرار فقد يكونان على غير وضع الاعتدال كأن ترسو السفينة أو تستقر وهي منكسة مثلاً على الشاطئ .

والاستقرار المعتدل الوضع هو المعنى المطلوب في جانب نجاة المؤمنين من الهلاك وسلامتهم من الطوفان .

ونفي التنكس - مثلاً - مطلوب في مكان عمّ الطوفان فيه وجه الأرض ، وغمر الماء النازل من السماء ، والمتفجر من الأرض كل سهل ووعر ، لتلايق في الظن أو الاعتقاد أن تكون السفينة قد تعرضت لشيء من الصعوبات ، والله قد صور لنا خطورة المجرى إذ يقول : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ (هود: ٤٢).

لذلك كان إشار لفظ « الاستواء » على غيره أنسب لمقتضى الحال ، حتى يعلم المخاطبون كيف صنعت عناية القادر بعباده المؤمنين .

### ● طريق الدلالة في اللفظ القرآني :

إن القرآن حين يختار لفظاً تجده دالاً على معناه بالجرس ، أو بالظل - أو بالجرس والظل معاً - وفي هذا المنهج يبدو لون من التناسق أعلى من البلاغة الظاهرية وأوقع من الفصاحة اللفظية ، اللذين يحسبهما بعض الباحثين في القرآن أعظم مزايا القرآن<sup>(١)</sup> .

والفروق بين هذه المواضيع جد دقيقة ، قد يصعب العزل بينها ، ولكنها سمة من سمات التعبير القرآني .

ولنأخذ - الآن - في ذكر بعض النماذج :

### ● الظل :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِفَايِنِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ (الأعراف: ٤٠) .

الهدف من الآية : بيان أن المكذبين بآيات الله والمستكبرين عن عبادته لن يحظوا بالقبول عند الله ، ولن يدخلوا الجنة ، وقد رتب حصول هذه المنافع لهم على أمر مستحيل هو دخول الجبل الغليظ في الثقب الدقيق لآلة الخياطة ، والمرتب على المستحيل مستحيل كذلك .

(١) النقد الأدبي أصوله ومناهجه - سيد قطب ص ٣٩ .

لكنه لم يذكر لفظ «الحبل» بل وضع موضعه لفظ «الجمل» وهو مشترك لفظي بين الحبل والحيوان الضخم المعروف .

وإنما أوتر لفظ «الجمل» مراداً منه «الحبل» لأن فيه دلالة ليست في الحبل ، فالحبل مهما كان غليظاً لا يبلغ ضخامة الجمل ، وهو - أي الحبل - متفاوت في الدقة والغلظ ، ولو صرَّح به لوقع في الوهم أنه الحبل الدقيق ، فتقرب المسألة حينئذ من الإمكان .

يُبدَأُ أن هذا الإمكان غير متصور مع «الجمل» ذلك الحيوان الضخم الذي نشاهده مثل الصخرة العظيمة .

ولتأكيد حرمانهم وشقائهم اختاره القرآن ليقطع عندهم كل أمل ما داموا في شقاق مع ربهم ، وإن السامع ليقع في خلده حين يسمع هذه الآية أن المراد بـ«الجمل» هو ذلك الحيوان الضخم ، ولا يكاد يتصور منه «الحبل الغليظ» لاشتهاره في الأول ، ونُدرة إطلاقه على الثاني .

فهذا جدير بأن يسمى معنى ثانياً للفظ يدركه الخيال ، واللفظ - هنا - دال على هذا المعنى الثاني بظله كما ترى .

### ● الجرس :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ (فاطر: ٣٦، ٣٧) .

ونقصد في هذا النص كلمة «يصطرخون» بالذات لأنها تُبين جارهم باللجوء إلى الله أن يخلصهم مما هم فيه ، وهي بجرسها الغليظ الصاخب ورنينها الخشن الصاك ، الذي يكاد يخترق صماخ الأذن ، تمثل الموقف أدق تمثيل .

فإن الصراخ المنبعث من نفوس تن تن تحت وطأة العذاب صراخ عال مدوّ يختلط ببعضه ببعض - بدءاً ونهاية - ويملاً المكان صخباً ورنيناً ، وإنك لتلحظ

أثر «الصاد» و«الطاء» في إبراز الصوت بمثل هذه الصورة الغليظة ، فهل كنت تحس شيئاً من ذلك لو وُضِعَت كلمة «يدعون» الهادئة الوديعه مكان «يصطرخون» - الهادرة العنيفة ، وهل كنت تقف على بلوغ قلقهم المدى لولا كلمة «يصطرخون» الملائمة لجوهم النفسي أدق ملاءمة وأبرعها .

### ● الظل والجرس :

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمُ إِذَا قِيلَ لَكُمُ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثَأَقَلَّتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ (التوبة: ٣٨) .

والهدف من الآية الإنكار على المتقاعدين عن الجهاد ، واستثارة همهم للغزو في سبيل الله لأنهم كلما دُعوا إلى القتال تراخوا وفترت عزماتهم .

فجاءت كلمة «اثاقلتُم» تصوّر المعنى أبداع تصوير لأن المتثاقل يقاوم حركات الرافعين له ، كلما رُفِعَ تساقط وهوى إلى الأرض ، والذين قعدوا عن الجهاد مثلهم مع الداعي إليه مثل المتثاقل مع رافعيه .

هذه صورة يدركها الخيال ، ومنظر مائل أمام الناظرين تصوّره كلمة واحدة هي «اثاقلتُم» بما تثيره من خيال «ظل» ، وبما توحى به نغماتها من رنين «جرس» فهي تتكون - بحسب نطقها - من أربعة مقاطع صوتية ، وكل مقطع منها مكوّن من فتح وسكون ، والفتح والضم حركة تشبه دعوة الداعي ، والسكون على المقاطع تملص من تلك الحركات الرافعة ، وإخلال إلى الأرض .

ولنا أن نقارن بين الكلمة المدعويين إليها «انفروا» والكلمة الجانحين هم إليها «اثاقلتُم» فلأولى خفة ، توحى بمعنى الانطلاق ، وللثانية ثقل يوحي باللصوق بالأرض ، فبينهما ما بين الحركة السريعة والبطء المتثاقل !

وخذ إليك قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ۖ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ (المدثر: ٥٠، ٥١) وتأمل الصورة تأملاً تدرك منه سر اختيار هذه الكلمات : «حُمُرٌ» و«مستنفرة» و«فرت» و«قسورة» وإذا وصلت إلى ذلك أدركت إلى

أي مدى كان الكافرون يُعرضون عن الدعوة ويشردون منها شروداً بالغاً مداه  
كما تشرك الحُمُرُ المستنفرة إذا هاجها الصياد أو الأسد المفترس .

وهم يشردون خائفين منها لما فيها من نُذْرٍ تطير منها قلوبهم التي غمرها  
الشیطان بغوايته ونفوسهم التي أسرها الهوى بضلاله ، وكلمة « مستنفرة » تزيد  
المعنى دقة ووضوحاً لأن من الحُمُرِ حُمُراً أهلية تأنس إلى مَنْ تراه وليست  
هذه منها بل هي مستنفرة تفزعها مجرد الرؤية بله الطلب وتوقع الخطر ،  
وكذلك كلمة « فرت » إذ تبين هذه الكلمة أنهم لشدة إغراضهم لم يشردوا من  
الداعي ماشين على أقدامهم فوق الأرض ، بل طائرين في الفضاء كما يصنع  
الطير المهيج .

وقد اشترك الظل مع الجرس في دلالة هاتين الكلمتين « مستنفرة » ،  
« فرت » كما ترى .

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ  
مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (الأعراف: ١٧٥).

هذه الآية تصوّر - كذلك - تملص رجل من الإذعان لهدي الله ، وقد اختير  
للدلالة على هذا المعنى كلمة « انسلخ » وهذا اللفظ يرسم لنا الصورة عنيفة  
فظيعة ولهذه الصورة رمز ومعنى .

فالانسلاخ لغة : إزالة الستور ، يقال : انسلخ الرجل من ثيابه إذا طرحها ،  
والشاة إذا أزيل عنها جلدها ، فكان خروج هذا الرجل عن طاعة الله إلقاء  
لستوره وما يحفظ عليه أمره ، فهو - بعد - لا يلوى على شيء من أسباب  
الكرامة ودواعي التوقير .. قال الزمخشري في توجيه هذا المعنى : « فحططناه  
ووضعنا منزلته »<sup>(١)</sup> .

(١) جاء في مختار الصحاح : « والمسلوخ الشاة التي أزيل عنها الجلد ، وانسلخ الشهر من  
سنته ، والرجل من ثوبه » ص ٣٠٩ .

ومعنى آخر يُفهم من هذا التعبير ، ذلك أن الانسلاخ للشاة لا يكون إلا بعد الذبح ومحال أن يُسلخ جلد شاة وهي على قيد الحياة ، وفي هذا تضمين يوحى بأن هذا الرجل ومَن كان على شاكلته أموات غير أحياء ، وليس هذان المعنيان بغريبين عن البيان القرآني ، فهو حافل بالصور التي يوصف الكفار فيها بالضعفة وبالأموات .

﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴾ (الطور: ١٣) .

الحديث - هنا - عن أهل النار حين يُساقون إلى مأواهم فلا تساعدهم أقدامهم على السير رهبةً وفزعاً ... فتدفعهم الزبانية في أعلى ظهورهم مما يوازي صدورهم ، ومَن شأنه ذلك يُسمع لصدره صوت غير إرادي يتكوّن من هذا المقطع « أ ع » ولهذا كانت هذه الكلمة مصوّرة للمعنى بجرسها ورنينها .

● تناسب اللفظ القرآني مع معناه :

ومما يتصل بهذا المعنى أن ألفاظ القرآن تأتي عنيفة قوية في مقام التهديد والوعيد وما أشبه ذلك ، ورقيقة عذبة في الترغيب والتبشير وما أشبههما ، هادئة ثرية في مقام التشريع والتوجيه وما قاربهما .

فمن أمثلة التهديد والوعيد :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿٢﴾ وَبَيْنَ يَدَيْهِ شُهُودًا ﴿٣﴾  
وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿٦﴾  
سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا ﴿٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٠﴾  
ثُمَّ نَظَرَ ﴿١١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَسَكَرَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿١٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ ﴿١٤﴾  
يُؤْتَرُ ﴿١٥﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿١٦﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرًا ﴿١٧﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرُوا ﴿١٨﴾  
لَا تُتَّقِي وَلَا تَدْرُ ﴿١٩﴾ لَوْ آحَاةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٠﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٢١﴾ (المدثر: ١١-٣٠) .

فانظر إلى عنف الألفاظ إلى أي مدى يصل ، وإن العنف ليلبغ مداه في مواطن الحكم من النص الذي أثبتناه من سورة المدثر ، وذلك في موضعين :

﴿ سَأَرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ - ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ وقد بدأ هذا النص بكلمة أعنف ما تكون في هذا الموضع : ﴿ ذَرْنِي ﴾ وياويل مَنْ كان هذا تهديداً له ، إنهن كلمات قاتلات أوقع في النفس من أمضى سلاح .

ومثله : ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحَجِيمًا ﴾ ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴾ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ ﴿ أَلَسْمَاءَ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ ﴿ إِنْ هَدِيَهُ تَذَكُّرًا فَمَنْ شَاءَ أَخْذًا إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾

(المزمل: ١١-١٩) .

تأمل هذا النص ، ثم أنعم نظرك في هذه التعبيرات : ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ ﴾ - ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ - ﴿ أَنْكَالًا وَحَجِيمًا ﴾ - ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ - ﴿ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ - ﴿ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ - ﴿ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ - ﴿ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ .. ألم تجدها ذاهبة في القوة والإرهاب إلى أبعد أثر .

ومثله : ﴿ إِنْ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ ﴿ لِلطَّغْيِينِ مَقَابًا ﴾ ﴿ لَيْسِيْنَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ ﴿ لَا يَدُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ ﴿ وَكَذَّبُوا بِفَاتِنَتِنَا كَذَابًا ﴾ ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ (النبا: ٢١-٣٠) .

إن موجة العنف تبدأ من أول كلمة في النص ، ولكنها لا تنتهي حتى بأخر كلمة تصوّره ، فقد اشتملت الآية الأخيرة على الفعل المضارع الواقع في حيز النفي ﴿ فَلَنْ نَزِيدَكُمْ ﴾ وهنا ربما وهم الواهمون أن جزاء هؤلاء مقصور على ما ذكّر فيما مضى من النص ، ولكن هذا الوهم مدفوع بالاستثناء ﴿ إِلَّا عَذَابًا ﴾ .

فالزيادة المنفية هي الزيادة التي من جنس الرحمة ، أما الزيادة التي من جنس العذاب فلاحقه بهم ما دامت السموات والأرض ، وفي هذا من تبيكيتهم وحسرتهم ما لا يخفى .

ومثله : ﴿ وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُحْمَةٌ ۝۱۱۱ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝۱۱۲ مَحْسَبٌ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝۱۱۳ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝۱۱۴ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝۱۱۵ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ۝۱۱۶ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝۱۱۷ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۝۱۱۸ فِي غَمَدٍ مُّمدَّدةٍ ۝۱۱۹ ﴾ (الهمزة: ١-٩).

هذه مثل ، وغيرها كثير ، لم نرد بذكرها الاستقراء التام ، بل نماذج وشاهد صدق على ما نقول .

### • الظم :

ويقرب من مقام التهديد والوعيد ، مقام الهجاء والظم ، ومن أمثلة ذلك : ﴿ وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَافٍ مَّهِينٍ ۝۱۲۰ هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَعِيمٍ ۝۱۲۱ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٍ ۝۱۲۲ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٍ ۝۱۲۳ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝۱۲۴ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝۱۲۵ سَنَسِفُهُ عَلَى الْحَرْطُومِ ۝۱۲۶ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ۝۱۲۷ ﴾ (القلم: ١٠-١٧) .

ومثله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝۱۲۸ وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝۱۲۹ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝۱۳۰ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝۱۳۱ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آٰنِيَةٍ ۝۱۳۲ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ۝۱۳۳ لَا يُسْمَعُونَ وَلَا يُغْنَىٰ مِنْ جُوعٍ ۝۱۳۴ ﴾ (الغاشية: ١-٧) .

ومثله : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مِمَّا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۝۱۳۵ فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝۱۳۶ وَظَلَّلِمْ مِّنْ حَمُومٍ ۝۱۳۷ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٍ ۝۱۳۸ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ۝۱۳۹ وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْخِنْدِ الْعَظِيمِ ۝۱۴۰ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَهَذَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا ۝۱۴۱ أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ ۝۱۴۲ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوْلُونَ ۝۱۴۳ قُلْ إِنِّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝۱۴۴ لَمَجْبُوعُونَ ۝۱۴۵ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝۱۴۶ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكذِبُونَ ۝۱۴۷ ﴾

لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ﴿٥٦﴾ فَمَا لُتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٧﴾ فَشَرِبُوا مِنْهُ مِنْ  
 الْحَمِيمِ ﴿٥٨﴾ فَشَرِبُوا مِنْ شُرْبِ الْهَيْمِ ﴿٥٩﴾ هَذَا نُزْهُمُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿ (الواقعة: ٤١-٥٦) .

وهذا نهج القرآن حين يتحدى ، ولنذكر لذلك بعض النماذج :

﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى  
 السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ (الحج: ١٥) .

ومثله : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ  
 وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ  
 تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ النَّارِ أَنْتُمْ وَقَوْمُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾

(البقرة: ٢٣، ٢٤) .

ومثله : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥١﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي  
 صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ  
 رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ (الإسراء: ٥٠، ٥١) .

● إجمال :

هذا تصريف القرآن في القول بحسب المقام ، ولكل مقام مقال ، فترى كل  
 لفظة وقعت موقعها ، بحسب السياق ، وبحسب ما يناسب كل حالة من حالات  
 المخاطبين ، فما من موضع مما ذكرنا نلمس فيه مداينة أو ليونة ، أو تقصيراً  
 في أي جانب من جوانب القول ، قوة وفخامة في الألفاظ ، ورهبة وعنفا في  
 المعاني ، لذلك كان الكافرون يرهبون سماعه ويصدون عنه صدوداً ، ويفرون  
 منه كما تفر الحُمُر من رميات السهام ، ألم يحك عنهم القرآن قولهم :  
 ﴿ لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ (فصلت: ٢٦) .

أو لم يضع الوليد بن المغيرة يده على فم الرسول ﷺ ليكف عن القراءة  
 رهبة منه حين سمعه يتلو قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً  
 مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (فصلت: ١٣) وهو يقول : بحسبك يا ابن أخي .

هذا لما كانوا يرونه فيه من آيات النذر المؤثر ، والوعيد المخيف ، ولو تأملنا ما نزل من القرآن بمكة ، موطن الصدود والتحدي لوجدناه حافلاً بهذا اللون من التعبير ، خاصة في قصار سوره ومتوسطها .

### ● الترغيب :

فإذا خرج القرآن عن مقامات التهديد والوعيد ، والتحدي والهجاء ، إلى الترغيب والتوجيه أو العتاب والتنبيه ، فإن له مسلكاً غير هذا المسلك ، وسيلاً غير تلك السبيل .

فانظر إليه في مقام الترغيب كيف يقول : ﴿ وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (النور: ٢٢) .

في الآية الكريمة ترغيب في الإنفاق والبذل لمستحقه ، وقد جاءت الألفاظ سلسلة عذبة ، فيها إثارة لعمل الخير ، وترغيب بعد ترغيب ، ففي مطلع الآية يأتي التعبير : ﴿ أَوْلُوا الْفَضْلِ ﴾ ، وهو أنسب مطلع بالنسب لموضوع الحديث ، ثم عطف عليه ﴿ وَالسَّعَةِ ﴾ لأنه - مع ما عطفَ عليه - تذكير بنعمة الله على المخاطبين ، والفضل والسعة نعمتان تستوجبان شكر مَنْ أولاهما ومن مظاهر شكرهما الإنفاق الذي يدور عليه محور الآية الكريمة .

وجاء التعبير بـ ﴿ أُولَى الْقُرْبَىٰ ﴾ - ﴿ وَالْمَسْكِينِ ﴾ - ﴿ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، وهي أوصاف تثير في النفس شعور العطف والحنان ، ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا . . ﴾ حاثاً النفوس حتى لا يعوقها عن الإنفاق عائق .

ويأتي قوله تعالى : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ حاثاً المؤمنين على المغفرة .. وكانت ﴿ أَلَا ﴾ مهيئة الشعور لهذا الترغيب والعرض الجميل ، ومن الذي يغفر ؟ الله : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

إن السامع لهذه الكلمات يشعر بالأمن يملاً جوانب نفسه ، وبالمغفرة تمحو كل خطاياهم فينتقل منفقاً في السر والعلانية .

ومثله : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۗ وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَذَوْنَنَ ﴿١٠٣﴾ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٣، ١٠٤) .

والآيتان دعوة إلى التمسك بالدين وآدابه ، وقد خدمت الألفاظ الفكرة المرجوة من النص خدمة جلييلة :

﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ - ﴿ نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾ - ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ - ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ - ﴿ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ - ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَذَوْنَنَ ﴾ - ﴿ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ - ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ - ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ .

كلمات مفصلات لمواقف تتطلبها .. ومعان تشع منها .

ومثله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكَّرْتُمْ عَلَىٰ حَتِّرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠٤﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٦﴾ وَأُخْرَىٰ يُحِبُّونَهَا نَصَرْنَا مِنَ اللَّهِ وَفَتَحْنَا قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الصف: ١٠-١٣) .

وهذا النص كسابقه يتسلل إلى خفايا النفوس بنداثة الذين آمنوا في المطلع ، والعرض اللطيف في : ﴿ هَلْ أَذُكَّرْتُمْ ﴾ ، وتمثيل الأعمال الصالحة بالتجارة التي تنجي من عذاب أليم ، ويذكر الإيمان بالله والجهاد في سبيله بالمال والنفوس ، والحكم على هذه الأعمال بأنها خير للمخاطبين يدركون خيرها لو حصلت لهم أسباب العلم النافع .

ثم انظر إلى الجزاء الذي أشارت إليه الآية الأولى : ﴿ تُنَجِّكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، وفصلته الآيتان الأخيرتان : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

ثم انظر إلى قمة التشويق والإثارة في قوله : ﴿ وَأُخْرَى تَحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ .. فالأخرى محبوبة ، والنصر من الله لا من غيره ، والفتح قريب ، وقد أجمل «الأخرى» في صدر الآية ثم فصلها فيما بعدها ، وذلك شرط الفخامة وعنصر التشويق .

ومن حسن المطلع ، وحسن الختام أن النص بدأ بنداء المؤمنين ، واختتم ببشارة المؤمنين ، وبين النداء والبشارة جنات ورياحين .

ويسلك القرآن هذا المسلك إذا وصف مادحاً ، ونكتفي بمثال واحد فيه غناء أيما غناء : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَعٌ أُخْرِجَ شَطْبُهُ فَكَازَرَهُ فَأَسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِمْ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح: ٢٩) .

صورة بهيجة ، ومنظر ضاحك ، ترسمه ألفاظ فتبدع في الرسم ، وتترك للخيال حرية التصور ذاهباً فيه إلى أبعد مداه .

### ● العتاب :

والقرآن ينتهج في العتاب نهجاً فريداً ، جامعاً فيه بين العذوبة والرفقة والقوة ، وهذان أمران أساسيان في كل عتاب ناجح ، لأن العتاب مقام يقتضي نوعين من المعاني والألفاظ لأنه لا يكون إلا عن تقصير أو خطأ ، هذا أحد سببيه الأقوى ، ولا يكون إلا حين يرجى من المعائب عود إلى الجادة ، وتوخي الصواب .

وعتاب القرآن الذي يهمننا هنا نوعان :

أولهما : عتاب الله رسوله .

ثانيهما : عتاب المؤمنين .

وفي كلا النوعين جاء عتابه ناجحاً ، لاشتماله على الخاصتين المذكورتين :  
تذكير قاس بما كان مما استوجب العتاب ، وإغراء على الرجوع إلى الحق  
والحث عليه بما يثيره النص من بوارق الأمل وأسباب العفو .

### ● عتاب النبي ﷺ :

فمن عتاب الله رسوله قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾  
وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكِي ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾ أَمَا مِنْ أَسْتَفْتَى ﴿٥﴾  
فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكِي ﴿٧﴾ وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ  
يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْتَهُ تَلْهَى ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ  
مُكْرَمَةٍ ﴿١٣﴾ تَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (عبس: ١-١٦) .

وهذا أقصى عتاب وجهه الله لرسوله عليه السلام ، وبَيَّنَّ له فيه كثيراً من  
الحقائق ، وفي هذا العتاب - مع قسوته - اشتمل القرآن على كثير مما يخففه ،  
وبيَّنَّ حُسن نية الرسول عليه السلام فيما بدر منه حين أعرض عن عبد الله  
ابن أم مكتوم وأقبل على وفد قريش يحاورهم .

فقد خفف من قسوة هذا العتاب أنَّ الله لم يسند العبوس والتولي للرسول  
مواجهاً له به فجاء مُسنداً إليه على طريقة الغيبة : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ ، ولم يقل  
له : عبستَ وتوليتَ وهو مقتضى الحال ، ترفيقاً له في العتاب حتى لكان  
العابس والمتولي شخص آخر غير محمد عليه السلام ، والجمهور يسمون هذا  
السلوك القولي : وضع الغيبة موضع الخطاب ، ويسميه السكاكي : التفاتاً ، إذ  
لا يُشترط أن يسبقه التعبير بواحد من طرقيه الثلاثة ، وأياً كان الخلاف بينهم  
فإن المؤدى واحد هو كراهة إسناد ما لا يليق بالرسول على سبيل الخطاب .

وخفف منه - أيضاً - أن القرآن أبان أن ما حدث من الرسول لم يكن  
لغرض شخصي بل لباعث من بواعث الرسالة التي جاء بها ، وهو حرصه

الشديد على هداية هؤلاء الناس فكأنه أراد أن يستميلهم بحديثه وإقباله عليهم ، أما ابن أم مكتوم فمؤمن لا يتأثر بمثل هذه الأعمال التي بدرت من الرسول عليه السلام لمصلحة دينية توقعها هو .

ولطف العتاب مع الرسول أمر ملحوظ في القرآن ، انظر إليه يقول : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّيْنَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (التوبة: ٤٣) . فبالغة في لطف عتاب الله له ، صدر العتاب بالعفو من أول الأمر ، وقُدِّم على ما استحق من أجله العتاب : ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ ، وأن العتاب الرقيق يدل على عِظَم منزلة المعاتب عند المعاتب ، أن يبادره بالعفو ، ثم يأخذ معه في بيان ما خالف فيه مما لا ينبغي ألا يكون ..

وقد غلا الزمخشري في توجيه هذه الآية حيث قال : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ كناية عن الجناية ، لأن العفو رادف لها ، ومعناه : أخطأت وبئس ما فعلت<sup>(١)</sup> .

وغلوه في هذا التوجيه ظاهر ، لأنه حمل الكلمة ما ليس من طبيعتها وصرح بما لم يصرح به الله في كتابه ، ولو كان هذا الذي يقوله الزمخشري مطلوباً لله من هذه الآية لما منع مانع من ذكره ، ولو أنه فسّر قوله تعالى : ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ بما قاله في تفسير : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ لكان لقوله شبهة قبول لأن ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ هو موضوع المخالفة .

وقد تعقب ابن المنير قول الزمخشري ، وخطأه فيه ، ثم قال : « ولقد أحسن مَنْ قال في هذه الآية : إِنَّ من لطف الله تعالى بنبية أن بدأ بالعفو قبل العتب ، ولو قال له ابتداءً : ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ لتفطر قلبه عليه السلام ، فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه في حق سيد البشر عليه الصلاة والسلام<sup>(٢)</sup> .

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ١٢٥/٢ .

(٢) المرجع السابق : « الهامش » .

● عتاب المؤمنين :

وجاء في عتاب المؤمنين حين خاضوا في حديث الإفك ولم يتثبتوا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسِبُهُم مِّنْكُمْ بَلْ هُوَ خَبْرٌ لَّكُم بَلَاءٌ لِّئَلَّا تُتَّقُوا وَالَّذِينَ تَقَوُّا عُصْبَتَهُمُ الَّذِينَ جَاءُوا بِذِكْرِ الْوَيْدِ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُفْهِنُهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ وَسَيُبَدِّلُ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ كَمَا شَاءَ اللَّهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [النور: ١١-١٨].

وفي هذا النص الحكيم تتعاقب مظاهر القسوة مع اللين، والخوف مع الرجاء، والصفح مع العقاب .. فقد وردت في هذا النص هذه الكلمات : ﴿ بِالْإِفْكِ ﴾ - ﴿ الْإِثْمِ ﴾ - ﴿ تَوَلَّى كِبْرَهُ ﴾ - ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ - ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ - ﴿ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ - ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ ﴾ - ﴿ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ - ﴿ هَذَا بَطْنٌ عَظِيمٌ ﴾ - ﴿ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ﴾ .

وهذه كلها كلمات عامرات بقذائفها ، لأن الذنب الذي ارتكبه عظيم الأثر ، إذ المرمى به أم من أمهات المؤمنين ، وزوج النبي الكريم .  
فهذا اجترأ على الله وعلى رسوله ، وعلى المحصنات المؤمنات الغافلات ، لذلك كله جاءت مظاهر العنف في هذا العتاب بالغة القوة ، ووجهت إليهم الجنائية من طرق عديدة .

ولأن الخطاب مع مؤمنين ، ويرجى منهم الخير والعودة إلى سواء السبيل ، خففت حدة هذا العتاب ، فسرت فيه روح الأمل وأخرجته من الوعيد إلى العتب المرجو منه التوجيه والإثابة .

انظر إلى هذه الإشراقات : ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ ﴾ - ﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ﴾ -  
 ﴿ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِنَّ خَيْرًا ۖ ﴾ - ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ  
 وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ ۖ ﴾ - والتعبير بالمس دون  
 غيره تخفيف من الله في العتاب - ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ۖ ﴾ -  
 ﴿ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۖ ﴾ .

### ● التشريع :

أما في التشريع فإن اللفظ القرآني يأتي وسطاً بين النوعين إلا أن يقتضي  
 المقام عنفاً أو لطافة .

ولنذكر مثلاً للنص التشريعي في القرآن الكريم :

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن  
 قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٧٢) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى  
 سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن  
 تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١٧٣) شَهْرُ  
 رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ  
 فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ  
 أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ  
 وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٣-١٨٥) .

هذا نص تشريعي خالص أدى بكلمات هادئة - كما ترى - حتى في مواضع  
 الإثارة من النص فأنت ترى فيه هذه التعبيرات وهي في مواطن الإثارة والحث  
 على عمل الخير : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ - ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾ -  
 ﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ - ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

وصفوة القول في ذلك أن ألفاظ القرآن فضلاً عن اختيارها وروعتها في  
 أنفسها تأتي ملائمة للمقام الذي وردت فيه ، ولو أدت اللغة من ألفها إلى

يأتيها لتضع موضع اللفظ آخر يسد مسده من كل الوجوه رجوت مستحيلاً ،  
وعُدتَ كليلاً .

أما خواص اللفظ القرآني من حيث التعبير ، بعد انتقائه في نفسه ، وإصابته  
المقتل في الدلالة على معناه .. فإننا منذ الآن يجدر أن نصطلح على نظرية  
نحن بصدد التذليل عليها ، وهذه النظرية هي :

### ● منهج الالتزام :

ولهذه النظرية عدة جوانب : فمن التفرقة الدقيقة بين الألفاظ واستعمال كل  
لفظ في معنى دون غيره مع استعمال نظيره فيه دون ما خلط بين استعمال  
اللفظين ، وهذا المنهج غير مألوف في أساليب الناس ، وقد تقع تلك التفرقة  
الدقيقة بين الألفاظ في استعمالات المادة الواحدة كأن يختص استعمالها فعلاً  
في معنى ويطرد ذلك الاستعمال فيه ، ويختص استعمالها اسماً في معنى آخر  
كذلك .

إلى التزام جمع الكلمة دون أن يأتي منها مفرد أو مثني ، أو التزامها مفردة  
دون أن يستعملها مجموعة أو مثناة .

أو التزام استعمالها منفية ، ولم ترد فيه مثبتة بحال من الأحوال .

إلى غير ذلك من الاعتبارات مما لا يقع تحت حصر إلا باستقراء الألفاظ  
القرآنية كلها في بحث متخصص في هذه الناحية .

وهذا إجمال لا بد له من تفصيل ، وسنحاول عند التبييه على هذه  
الخصائص في نماذجها توجيه هذا السلوك بقدر ما يهدي إليه النظر ، مفوضين  
علم ذلك إلى الله فهو وحده المستأثر بأسرار كتابه .

### - التزام الجمع :

فقد التزم القرآن جمع كلمتي : « الأرجاء » و « الألباب » . ولم يأت منهما  
بمفرد ولا بمثنى ، قال : ﴿ وَالْمَلِكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَتَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ  
يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ﴾ (الحاقة : ١٧) .

وقال : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (الرعد: ١٩) .

- التزام الأفراد :

والتزم الأفراد في كلمة « الأرض » في كل موضع ذُكِرَتْ فيه ، وما أكثر مواضع ذكرها فيه مصاحبة للسماء ، أو السموات ، وهي سواء أفردت السماء أو جُمِعَتْ مذكورة معها فإن الأفراد هو طابعها في كل موضع .

قال : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾

(طه:٦).

وقال : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَالنَّهَارِ وَاللَّيْلِ لِبَاطِنٍ ﴾ (آل عمران: ١٩٠) .

وحين يريد القرآن صيغة الجمع من الأرض فإنه لا يخرج عن مبدأ هذا الالتزام فيأتي بالأرض مفردة ، ويدل على الجمع منها بالوصف .

قال : ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ (الطلاق: ١٢) . أي مثل السموات سبع أرضين .

وقال : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾ (الرعد: ٤) .

ومما التزم فيه صيغة الجمع كلمة « أكواب » وكلمة « الظلمات » ، فلم تأت واحدة منهما في موضع منه مثناة أو مفردة .

قال : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِقَابِ أَوْ قَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَوْسَا أَوْ كَوْسًا كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴾ (الإنسان: ١٥) .

وقال : ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ (الأنبياء: ٨٧) .

وكذلك التزم الجمع في كلمة « الأرائك » قال : ﴿ مُتَكِّفِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾

لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ (الإنسان: ١٣) .

وقال : ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ (المطففين: ٣٥) .

وفي مظاهر الكون التزم الأفراد في « الشمس » و « القمر » و « الضحى »

و « النهار » . قال : ﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴾

(الشمس: ١-٣) .

وقال : ﴿ وَالضُّحَى ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ (الضحى: ١، ٢) .

ووجه الإفراد في الشمس والقمر ظاهر ، إذ لا ثاني لهما في الوجود ،  
والتأمل إنما في الضحى والنهار .

فإذا أريد بالنهار الجمع عدل عن لفظه إلى لفظ « الأيام » قال : ﴿ سَخَّرَهَا  
عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ (الحاقة: ٧).

كذلك التزم الإفراد في لفظ « النور » ، عكس التزامه الجمع في لفظ  
« الظلمات » ، والتزم التعريف في كلمتي « الناس » و « الصدور » مجموعاً  
أو مفرداً .

قال : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (النور: ٣٥) .

وقال : ﴿ يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ (الحجرات: ١٣) .

وقال : ﴿ يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾

(البقرة: ٢١) .

وقال : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ (الناس: ٦) .

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (آل عمران: ١١٩) .

وقال : ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ (الأنعام: ١٢٥) .

وقال : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (الشرح: ١) .

- التزم التنكير :

والتزم التنكير في كلمة « شيء » في كل موضع وردت فيه ، قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (النور: ٤٥) .

وقال : ﴿ مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ (الذاريات: ٤٢) .

وقال : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الذاريات: ٤٩) .

وقال : ﴿ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ (المائدة: ١٧) .

وقال : ﴿ لَا تَسْتَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْوَأُكُمْ ﴾ (المائدة: ١٠١) .

وقد كثر ورود هذه الكلمة «شيء» في القرآن الكريم ، ولا تخرج عن هذا المنهج الذي التزمه القرآن فيها ما دام قد صرَّح بلفظها الدال عليها .

#### - التزام النفي :

وقد التزم القرآن كذلك النفي في كلمة « يشعرون » في كل موضع وردت فيه ، فلم يأت إلا في سياق النفي .

قال : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة: ٩) .

وقال : ﴿ لَا تَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمُنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (النمل: ١٨) .

وهذا النفي كثيراً ما يأتي في مواضع الذم - مثل الآية الأولى - وقليلاً ما يأتي في غيره مثل الآية الثانية .

#### - التزام الإثبات :

والتزم الإثبات في بعض الكلمات مثل كلمة « طبع » مستخدماً لها في موضع الذم في كل موضع وردت فيه .

قال : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (النساء: ١٥٥) .

وسأتي تفصيل ذلك في فصل المجاز ، تلك ملاحظة دقيقة يجدها الباحث في ألفاظ القرآن ، أنها ذات خواص تعبيرية لم تشترك معها أية أساليب أخرى .

#### ● وجه آخر لنظرية الالتزام :

وللفظ القرآني خاصة أخرى غير الخواص التي ذكرناها غير التزام الجمع أو الأفراد وغير التزام التعريف أو التنكير ، وغير التزام النفي أو الإثبات .

وهذه الخاصة هي أن القرآن يُفرِّق بين الكلمتين المتفقتين في المعنى فيستعمل إحداهما في موضع لا يتعداه ، ويستعمل الأخرى في موضع آخر لا يتعداه إلى موضع الأولى ، وهما عند الناس - خاصتهم وعامتهم - متويان في الدلالة فلا يجدون بينهما فرقاً .

وقد فطن إلى هذا الملحظ الدقيق في ألفاظ القرآن الجاحظ حيث يقول :  
 « وقد يستخف الناس ألفاظًا ، ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى  
 أنّ الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن «الجوع» إلا في موضع العقاب  
 أو في موضع الفقر المدقع ، والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السغب ،  
 ويذكرون الجوع في حالة القدرة والسلامة .

وكذلك كلمة «المطر» ، لأنك لا تجد القرآن يأتي به إلا في موضع الانتقام،  
 والعامّة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث»<sup>(١)</sup> .

وليان ذلك نقول :

### ● الأب ليس والدًا ؟

خذ كلمتي «والد» و«أب» واستعرض استعمالات الناس لهما تجد أنهما  
 سواء في الدلالة فهما مترادفتان ، فكلا اللفظين يصح إطلاقه على المولود له  
 «الذكر» فهو أب وهو والد .

فإذا تتبعنا استعمالات القرآن لهذين اللفظين تجده مخالفاً لما ألفه الناس  
 وعلمت وجه الصواب فيه ، والخطأ في غيره .

فالقرآن لم يطلق كلمة «الوالد» على الأب الذكر إذا ذكره منفرداً  
 أو مجموعاً جمعاً مقصوداً به الذكور دون الإناث ، بل يطلق عليه أو عليهم  
 كلمتي «الأب» و«الآباء» ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف عليه  
 السلام : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْتِنَا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ (يوسف: ١١) .

وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ (الأحزاب: ٤٠) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ﴾ (الأنعام: ٧٤) .

وهذا في حالة الإفراد ، وكذلك المواضع التي ورد فيها مجموعاً ، ومنها :

﴿ قَالُوا بَلْ نَنْبُئُ مَا آَلَفِينَا عَلَيْهِ ءَأَبَاءُنَا أُولُو كَارٍ ءَأَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ  
 شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٠) .

(١) البيان والتبيين للجاحظ : ٤٣/١ .

وقوله : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾

(الزخرف: ٢٢) .

وقوله : ﴿ قُلْ أَوْلُوا جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِمْ كَافِرُونَ ﴾ (الزخرف: ٢٤) .

وقوله: ﴿ أَعِدَّا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوْءَابَاؤُنَا الْآوَلُونَ ﴾

(الصافات: ١٦، ١٧) .

وقوله : ﴿ لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (يس: ٦) .. وغير ذلك

كثير .

إذن فكلمة « الأب » هي الأداة المفضلة في أسلوب القرآن للدلالة على الذكر أو الذكور ، المولود لهم .

أما كلمة « الوالد » فلم تُطلق على الذكر المولود له إلا مندرجاً مع الأم « الوالدة » ، والقرآن يسلك هذا المسلك في مقام الإحسان إليهما ، وصنع المعروف معهما ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتُهُ أُمَّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ (لقمان: ١٤) .

وقوله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (الإسراء: ٢٣) .

وقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُم إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ (البقرة: ١٨٠) .

فالأب - هنا - والد على أسلوب التغليب ، لأن الوالد الحقيقي هي الأم .

وحفاظاً على هذه الدقة في اللفظ القرآني ، نرى القرآن عندما استدعى المقام معنى « الولادة » لكونه سبباً في حكم شرعي نراه - أي القرآن - قد عدل عن اسم الفاعل : « والد » إلى اسم المفعول : « مولود له » فقال : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ وَعَلَىٰ الْوَالِدِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا نَفْسَهَا وَلَا تَضَارَّ وَاوِدَةٌ بِوَالِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ ﴾ (البقرة: ٢٣٣) .

## ● ملحظان هامان :

وهذه الآية تفيدنا من ناحيتين :

أولاهما : أن القرآن أتى باسم المفعول مكنياً به عن الأب على وجه الحقيقة لأن الأب مولود له حقيقة ، وليس بوالد ، وذلك في موضعين منها : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ ﴾ . ثم : ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ ﴾ .

ثانيتها : أنه أتى باسم الفاعل المؤنث في الدلالة على الأم على وجه الحقيقة لأنها والدة فعلاً ، وذلك في موضعين منها كذلك : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ ﴾ . ثم : ﴿ لَا تَضَارَّ الْوَالِدَةُ بِوَالِدِهَا ﴾ .

فالأب في جميع الأحوال ليس والدًا ، وإنما هو مولود له ، وهذه لغة التنزيل التي تكاد تخلو من ظاهرة الترادف في هذه المواضع .

## ● اعتراض مدفوع :

ولا يقدر في هذه القاعدة قوله تعالى : ﴿ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ (لقمان: ٣٣) ؛ لأن الوالد هنا ليس المراد به الأب وحده ، أو الأم وحدها ، فالسياق مقتض للعموم فهو قريب من أسلوب التغليب الذي أشرنا إليه ، حيث غلب فيه جانب الوالدية على المولودية .. فأطلق «الوالدان» عليهما .

## ● والوالدة .. أب؟!!

وإذا كان الأب «والدًا» على أسلوب التغليب ، فإن الوالدة - كذلك - أب على أسلوب التغليب .

قال تعالى : ﴿ وَوَرِثَةُ آبَوَاهُ ﴾ (النساء: ١١) .. أي أبوه وأمه .

وقال : ﴿ وَرَفَعَ أَبْوَتِهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ (يوسف: ١٠٠) .. أي أبا يوسف وأمه عليهم السلام ، فهنا غلب جانب الذكورة على جانب الأنوثة فأجرى على الأم وصف «الأبوة» وسر هذا التغليب في الموضعين - فيما يبدو - أن تغليب

جانب الأثوثة في مقام الإحسان ملحوظ فيه ضعف الأنثى ، فهي بالإحسان أولى ... وللمعروف أهل ، وتغليب جانب الذكورة في جانب الإرث فلأن الأب الذكر أقوى من الأم لأنه عصبه الميت ، والذكر - غالباً - حظه من الإرث مثل حظ الأنثيين .

### ● سر التغليب :

فالتغليب في كل من الموضوعين جار على نسق حكيم - كما ترى - فصاحب الجانب الأقوى في المقام المسوق من أجله الكلام هو صاحب الجهة المغلبة المطوي معها الجانب الأضعف .

### ● النعمة ليست نعيماً :

النعمة في القرآن خاصة بما أنعم الله به على عباده في الدنيا لا الآخرة .. سواء أكانت خيراً مادياً كالمال والجاه والصحة ، أو هداية وإرشاداً إلى الصواب والتوفيق للعمل به ، وقد جاء بهذا المعنى في تسعة وأربعين موضعاً ، مضافة إلى الله - سبحانه - أو إلى ضميره أو مقطوعة عن تلك الإضافة لكنها منسوبة إلى الله بطريق آخر من طرق التعبير غير الإضافة .

ولنذكر بعض مواضعها مشيرين إلى ما بقي منها :

قال : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة: ٤٠) ، وجاءت فيها في موضعين آخرين وهما آيتا (٤٧ - ١٢٢) .

وقال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾

(النمل: ١٩ ، الأحقاف: ١٥) .

وقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الأنفال: ٥٣) .

وقال : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنِعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَنَكَيْهِينَ ﴾ (الدخان: ٢٥-٢٧) .

وقال : ﴿ وَذَرْنِي وَالْكَذِبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ (المزمل: ١١).

وقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (إبراهيم: ٦).

وقال : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ (إبراهيم: ٣٤ - النحل: ١٨).

وقال : ﴿ وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (النحل: ١١٤).

هذه عشرة مواضع يستخدم فيها القرآن « النعمة » مراداً بها ما أنعم الله به في الدنيا وهكذا في جميع مواضع استعمالات هذه الكلمة سواء أكانت مفتوحة النون ، أو مكسورتها .

والجمع فيها مثل المفرد ، قال : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبِاطِنَهُ ﴾

(لقمان: ٢٠).

وقال : ﴿ فَكَفَّرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾

(النحل: ١١٢).

وقال : ﴿ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ آجْتِنَبَهُ وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(النحل: ١٢١).

وكذلك جاءت « نعماء » خاصة بالدنيا في آية هود : ﴿ وَلَئِنْ أَدْرَقْتَهُ نِعْمَاءُ

بَعْدَ ضَرَاءٍ ﴾ (هود: ١٠).

أما كلمة « النعيم » فقد اطرده القرآن استعمالها فيما أنعم الله به على عباده

المقربين في الآخرة دونما غيرها ونذكرها على وجه الاستقراء :

قال : ﴿ وَجَنَّتٍ هُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴾ (التوبة: ٢١) . وقال : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي

جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ (الطور: ١٧) . وقال : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ (الواقعة: ٨٩).

وقال : ﴿ أَيْطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ (المعارج: ٣٨) . وقال :

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ (الانفطار: ١٣) . وقال : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾

(المطففين: ٢٢) . وقال : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ (المطففين: ٢٤) .

وقال : ﴿ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ (الإنسان: ٢٠) . وقال : ﴿ وَلَأَدْخَلْنَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾

(المائدة: ٦٥). وقال : ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (يونس: ٩). وقال : ﴿ فَأَلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (الحج: ٥٦) . وقال : ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (الصفات: ٤٣) . وقال : ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (الواقعة: ١٢) . وقال : ﴿ هُمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (لقمان: ٨) . وقال : ﴿ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ (الشعراء: ٨٥) . وقال : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (القلم: ٣٤) . وقال : ﴿ ثُمَّ لَنْ نَسْفَعَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (التكاثر: ٨) .

لا خلاف بين المفسرين في المراد بـ «النعيم» في هذه المواضع ، إلا الموضوع الأخير ، موضع التكاثر فقد ذهبوا يخصونه بنعم الدنيا وتأولوا ذلك على عدة وجوه .

### ● معنى النعيم في «التكاثر» :

فبعضهم يرى - كما يذكر الرازي في تفسيره<sup>(١)</sup> - أن المراد بالنعيم هو الرسول ﷺ ، وبعضهم يقول : هو تخفيف الشرائع ، أو هو صحة الأبدان ، أو هو الطعام والشراب ، وقد ذهب بعضهم أن المراد به النعلان اللذان يمشي بهما الإنسان ، ولعل هذا الرأي مبعثه أن الله يُحاسب على جلائل النعم وصغائرها ، وأمام هذا الحشد الهائل من تعدد الآراء اختار الرازي أن يكون المراد به جميع ما أنعم الله به على الناس ، قال : «والأولى عندي أنه يجب حمله على جميع النعم ، وأن تكون الألف واللام فيه للاستغراق»<sup>(٢)</sup> .

وخصه الزمخشري بنعيم المترف الذي عكف نفسه على استيفاء اللذات ، ولم يعيش إلا ليأكل ويشرب ويقطع أوقاته باللهو والطرب ، فأما مَنْ تمتع بنعم الله وأرزاقه التي لم يخلقها إلا لعباده وتقوى بها على دراسة العلم ، والقيام بالعمل ، وكان ناهضاً بالشكر ، فهو عن ذلك بمعزل<sup>(٣)</sup> .

(٢٠١) تفسير الفخر الرازي ٤٧٤/٨ .

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري : ٢٣١/٤ .

والطبري يخصه كذلك بنعيم الدنيا قال : « ثم ليسألنكم الله عَزَّ وَجَلَّ عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا ماذا عملتم فيه ؟ ومن أين وصلتكم إليه ؟ وفيم أصبتموه »<sup>(١)</sup> .

وأنا مع مَنْ يحمل المراد بالنعيم في آية التكاثر على نعيم الآخرة ، جرياً مع العُرف القرآني في استعمال هذه الكلمة على المنهج الذي شرحناه<sup>(٢)</sup> .  
ولكن ما معنى السؤال - حينئذ - عن نعيم الآخرة ؟

الذي يبدو وجيهاً في هذا السؤال « أنه سؤال توبيخ وحسرة » ، فقد كان مطلع السورة : ﴿ أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ (التكاثر: ١، ٢) ناعياً على هؤلاء حظهم من الحياة الباقية ، حيث شغلوا أنفسهم بالدنيا ورأوا فيها كل متع الحياة ، ولم يفيقوا من ضلالهم حتى أنزلهم الموت قبورهم بعد أن ضيعوا على أنفسهم كل مسعى ناجح .

وحين يرى هؤلاء ما أعدَّ الله لعباده الطائعين من نعيم مقيم ، يسألهم الله عن النعيم الحق ، ما هو ؟

أهو ما يرونه أمامهم من جنات تجري من تحتها الأنهار ، وحوار عين ، وولدان مخلدين ، فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتقر به الأعين .

أم هو ما كانوا يحظون به في الحياة الدنيا من نعمة زائلة ، وعرض هالك .. أي النوعين أخرى أن يسمى نعيماً .

### ● مغزى السؤال :

وهذا السؤال يحقق غرضين :

أولهما : بيان خطأ مسعاهم وضلال ما كانوا به يتمسكون .

وثانيهما : إدخال الحسرة عليهم حين يرون هذا النعيم الخالد وهم منه

محرومون .

(١) تفسير الطبري : ١٨٤/٣٠ .

(٢) التفسير البياني - الدكتورة عائشة عبد الرحمن : ٢٠٥/١ .

وليس هذا التوجيه بغريب عن منهج القرآن ، أعني : سؤال الكفار للتقرير والتوبيخ فقد ورد في مواضع عدة مما سيكون يوم القيامة .

قال سبحانه : ﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٣٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٣٤﴾ وَقَفَّوهُمْ إِيَّاهُمْ مَسْتَوْلُونَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ ﴿٣٦﴾ ؟ (الصفات: ٢٢-٢٥) .

وقال موبخاً ومقرراً : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ﴿٣٧﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ (الطور: ١٤، ١٥) .

● والمرأة .. ليست زوجاً<sup>(١)</sup> :

ومثل هذه الكلمات كلمة « امرأة » فإنَّ القرآن يستعملها في المواضع التي تفقد فيها الحياة الزوجية بعض مقوماتها ، سواء أكان ذلك من جانب الرجل ، أو من جانب المرأة ، ويؤثر كلمة « الزوج » متى استقامت تلك الحياة .

وكذلك إذا انفصمت عرى الزوجية بموت وما أشبه الموت ، ولنذكر النصوص الواردة في ذلك :

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ (آل عمران: ٣٥) .

وقال : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلِئَلَةً أَوْ امْرَأَةً ﴾ (النساء: ١٢) .

وقال : ﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ (النساء: ١٢٨) .

وقال : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ (يوسف: ٣٠) .

وقال : ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَيْنَ حَصْحَصَ الْحَقِّ ﴾ (يوسف: ٥١) .

وقال : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (النمل: ٢٣) .

(١) لم أثبت تاء التأنيث هنا تبعاً للغة القرآن الحكيم .

وقال : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ ﴾ (القصص: ٩٠)

وقال : ﴿ وَامْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ (الأحزاب: ٥٠)

وقال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ (التحريم: ١٠)

وقال : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ (التحريم: ١١)

وقال : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾

(هود: ٨١)

وقال : ﴿ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾

(العنكبوت: ٣٣)

وقال : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٣)

وقال : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَابِئَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ رَتَبًا فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾ (هود: ٧١)

وقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مَرْبِعَ لَكُمْ بِمَثْوَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ (يوسف: ٢١)

وقال : ﴿ إِلَّا امْرَأَتُهُ قَدَرْنَا لَهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (الحجر: ٦٠)

وقال : ﴿ لَنَنْجِيَنَّهٗ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (العنكبوت: ٣٢)

وقال : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَافٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾

(الذاريات: ٢٩)

وقال : ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۖ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾

(المسد: ٤، ٥)

وقال : ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ (آل عمران: ٤٠)

وقال : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ (مريم: ٥)

وقال : ﴿ قَالَ رَبِّ أُنِّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ (مريم: ٨)

وقال : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾ (البقرة: ٢٨٢)

وقال : ﴿ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ (القصص: ٢٣)

### ● استعمال كلمة « المرأة » :

هذه مواضع استعمال هذه الكلمة في القرآن الكريم ، وقد سبق لنا القول بأن القرآن يؤثر استعمالها إذا فقدت الحياة الزوجية بعض مقوماتها ، أو مقوماتها كلها ، وهذه الآيات يمكن تصنيفها من حيث الأساس الذي بيناه إلى المجموعات الآتية :

الأولى : أن يُفرَّق الموت بين الزوجين كما في آية « امرأة عمران » لأن قولها : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ كان بعد موت زوجها عمران<sup>(١)</sup>.  
الثانية : ألا يكون للمرأة زوج أصلاً ، كما في قصة بلقيس وبنتي شعيب وذلك واضح .

الثالثة : أن يكون العقم هو الملاحظ في الحديث ، كما في امرأة العزيز وامرأة زكريا عليه السلام .

الرابعة : أن يكون الاختلاف في الدين هو السبب الداعي إلى عدم اعتبار الحياة الزوجية قائمة من كل الوجوه كما امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون .

الخامسة : أن تكون الخلافات الزوجية هي السبب وهي في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا ﴾ .

السادسة : أن يكون الحديث عنها ليس باعتبارها زوجة لأحد ، بل باعتبار حقيقتها المقابلة لحقيقة الرجل ، مثل : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾ .

(١) انظر : تفسير الكشاف للزمخشري : ٢٧٢/١ .

السابعة : أن يكون الزوجان ممن يحادون الله ورسوله ، فكأن القرآن - هنا - يعتبر الروابط الزوجية غير قائمة بينهما ، وذلك في قوله تعالى : **وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ** .

● **شبهة وردها :**

هذه طريقة القرآن في استعمال كلمة «امرأة» .. لكن الباحث قد يعثر في آيات الكتاب على استعمال كلمة «زوج» مكان «امرأة»، مع وجودها ما يهدد الروابط الزوجية أو يفيد عدم قيامها مثل قوله تعالى : **﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾** (الأحزاب: ٣٧) .

ومثل قوله تعالى : **﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾** (البقرة: ٢٣٤) .

وقوله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾** (الأحزاب: ٢٨) .

فيقع في الظن أن كلمة «امرأة» لا تُستعمل إلا في المواضع التي يعتري الزوجية فيها خلاف أو سبب مما ذكرناه .

أما «زوج» فتستعمل في الموضوعين جميعاً .

والذي أراه أن هذا الاحتمال مدفوع لإمكان توجيه النصوص المخالفة على وجوه تطرد بها القاعدة .

ففي نصح الرسول عليه السلام لزيد حين دَبَّ الخلاف بينه وبين زينب كَرِهَ الرسول ذلك الخلاف واعتبره كأن لم يكن ونصحه بالتمسك بها ، وما دمننا قد عرفنا طريقة القرآن في استعمال كلمة «امرأة» فإنه لا يسوغ فيه أن يقال : «أمسك عليك امرأتك» لما بين هاتين الكلمتين : «أمسك» و«امرأة» من جفاء .

وأما قوله تعالى : **﴿ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾** فذلك في مقام «الجمع» وحديثنا في مقام الأفراد وإنما أوتر جمع «زوج» على جمع «امرأة» لأن الثانية «امرأة»

لم يستعمل لها جمع لثقله ، وبهذا تطرد القاعدة ، وتأكيداً لهذه الاعتبارات نسوق قوله تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾ (الأنبياء: ٨٩، ٩٠) .

والشاهد أن امرأة زكريا حين أصبحت صالحة للإنجاب آثر القرآن أن يطلق عليها «زوجه» دون «امرأته» وكانت «امرأة» إذ كانت «عاقراً» .

### ● استعمال كلمة «زوج» :

ولعل السر البياني في كل أولئك أن ضَنَّ القرآن بكلمة «زوج» في المقامات التي يسود فيها الحياة الزوجية ما يجعلها قليلة الإثمار لأن هذه الكلمة نفسها تدل على «الزوجية» لأنها ما سميت زوجاً إلا مضافاً إليها الرجل وما سمي الرجل زوجاً إلا مضافة إليه هي<sup>(١)</sup> ، وديب الخلاف ينافي هذا الاعتبار .

أما «امرأة» فهي خالية من تلك الدلالة إذ هي إطلاق عليها باعتبار حقيقتها المقابلة لحقيقة الرجل .

### ٤ - النغم القرآني :

تقدّم الحديث عن هذه الخاصة متفرقاً في ثنايا الموضوعات السابقة ولا سيما في بحث الفواصل ، وما نذكره الآن وصف عام لأسلوب القرآن الكريم ، من حيث موسيقاه ونغمه الصوتي ، وهي خاصة فريدة لم يشركه فيها غيره على الإطلاق ، وهذه الخاصة أتاحت قراءة القرآن مرتلاً مجوداً .

(١) من محاضرة مرتجلة ألقاها فتح الله بن بدران بجمعية الشبان المسلمين منذ عشر سنين .

## ● دعائم النغم القرآني :

وقد ساعد على روعة النغم القرآني - أو الإيقاع الصوتي لألفاظه - عوامل

أهمها :

أولاً : فواتح سورة، مثل : ﴿ اَلَمْ ﴾ ومثل : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ﴾ ومثل : ﴿ حَم ﴾ ومثل : ﴿ سُبْحٰنَ الَّذِي اَسْتَرٰى بِعَبْدِهٖ ﴾ .

ثانياً : فواصل الآيات ، مثل : ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ ومثل : ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، ﴿ عَصِيًّا ﴾ ومثل : ﴿ نَجِيًّا ﴾ ومثل : ﴿ مُنْبِئًا ﴾ و ﴿ ثَلَاثَةً ﴾ .

ثالثاً : أدب تلاوته من مد وإدغام وغن وقلقلة ووصل ووقف وإظهار وإخفاء وتفخيم وترقيق ... إلخ .

رابعاً : بناء جملة بناءً موسيقياً شجياً من تقابل بين الكلمات ، وتساو بينها في الحروف ، مثل : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ﴿ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ (النبأ: ١-٣) .

فبين كل كلمة وأخرى تقابل موسيقى في عدد الكلمات والحروف والحركات .

خامساً : والعبارات تتألف من جُمل ليست مرسلة تماماً ، ولا مسجوعة تماماً .

إذ ليس في آخرها قرائن ولا تخلو من التقسيم الذي يشبه جُمل السجع<sup>(١)</sup> ، وهذا البناء الفريد لكلمات وجُمل القرآن وفقره وسوره ، جعله يمتاز بخاصة سما بها فوق النثر الفني ، والكلام المنظوم ، فليس هو بواحد منهما : ليس شعراً لأنه ليس على مناهج الشعر من بحور وتفاعيل وعلل وزخارف ، وليس نثراً مما اعتاد الناس حذقه لأنه يباين طريقتهم في التعبير وأخذهم في فنون القول ، والنثر وإن اشترك معه في بعض المظاهر كالسجع والإرسال فإنه دونه بمراحل .

(١) محاضرات في الأدب الإسلامي والأموي - دكتور سليمان حسن ربيع ص ٢٤ .

## ● أثر هذه الخصائص في التسمية :

وهذه الخصائص جعلت الدكتور طه حسين يعد القرآن ، نمطاً ثالثاً فوق الشعر وفوق النثر<sup>(١)</sup> ، فهو «قرآن» .

فإطلاق هذه اللفظة عليه : «قرآن» كاف في تحديده عما سواه ، وتمييزه من فنون القول الأخرى ، وهذا نصه : «إنَّ القرآن ليس نثراً ، كما إنه ليس شعراً ، إنما هو قرآن ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم ، ليس شعراً ، وهذا واضح فهو لم يتقيد بقيود الشعر ، وليس نثراً لأنه مقيد بقيود خاصة به ، لا توجد في غيره ، وهي القيود التي يتصل بعضها بأواخر الآيات وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة ، فهو ليس شعراً ولا نثراً ، ولكنه : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود: ١)<sup>(٢)</sup> .

وأجدني ميالاً لهذا المذهب الذي يراه الدكتور طه حسين ، ويمكن أن نسجل - هنا - فارقاً آخر بين النثر والقرآن .

## ● فرق جديد بين القرآن وغيره :

الأدب - عموماً - متأثر بظروف البيئة السياسية والاجتماعية والفكرية التي قيل فيها ، وعاش صاحبه أحداثها ، ولذلك فأنت ترى لأدب كل عصر خصائصه ومميزاته .

وإذا عرف الباحث خصائص أدب كل عصر ، استطاع أن يرجع كل ما يقع تحت بصره من نصوص مجهولة القائل والعصر إلى عصرها .

أما القرآن الكريم فإنه - بمادته وفكره ، وألفاظه وأسلوبه - لا يمثل عصرًا من عصور الأدب تأثر بها ، واقتبس منها ، ودار في فلکها ، بل هو سام في كل عصر بما له من خصائص وسمات .

(٢٠١) من حديث الشعر والنثر - دكتور طه حسين ص ٢٥ .

ويختص القرآن الكريم بأن له إيقاعاً صوتياً فريداً سواء المرسل منه والمسجوع ، وقد يدق الوزن - أحياناً - حتى يشبه الشعر ، وما هو بشعر ، في بعض أعاريضه وأضربه وفي بحوره المعروفة .

### ● مجيئه على تفاعيل الشعر في الظاهر :

ومن ذلك : ﴿ وَجَفَانٍ كَأَجْوَابٍ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ﴾ (سبأ: ١٣) .. فقد جاءت هذه الآية على نظام بحر الرمل وتفاعيله :

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

فإذا جاز لنا أن نُقَطِّع الآية تقطيعاً عروضياً ، وجدنا تفاعيلها على النحو الآتي :

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

فهي - إذن - على غرار مجزوء الرمل ، لحذف إحدى تفاعيله من كل شطر .

كما نرى أن التفعيلة الأولى حُذِفَ منها الحرف الثاني الساكن ، ويسمى هذا « خبئاً » ، ونلاحظ أن التفعيلة الأولى فيما أشبه الشطرين تساوتا في الحذف الذي سُمِّيَ خبئاً في عُرف العروضيين أما التفتيلتان الباقيتان فقد سلمتا من جميع ما أطلقوا عليه زحافاً أو عِللاً<sup>(\*)</sup>.

وبهذا قابلت « جفان » : « قدور » من حيث الوحدات الصوتية فيهما ، وقابلت « كالجواب » : « راسيات » فيها كذلك .

ومن ذلك أيضاً : ﴿ وَمَنْ تَرَكَّى فَإِنَّمَا يَتَرَكَّى لِنَفْسِهِ ﴾ (فاطر: ١٨) .. فقد جاء على مجزوء الخفيف ، وتفاعيله كاملاً :

فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن

أما مجزؤه فيصبح :

فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن مستفع لن

(\*) مرجعي في إثبات التفاعيل كتاب : أهدي سبيل - للمرحوم محمد مصطفى .

هذا باعتبار سلامته من الزحافات والعلل ، وتفاعيل الآية كالاتي :

فاعلاتن متفع لن فعلاتن متفع لن

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَخُذْهُمْ وَيُنصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَنُشِفِ صُدُورَ قَوْمِ مُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة: ١٤).

فقد وزنوه على بحر الوافر ، وتفاعيله :

مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن

فقد تساوت فيه التفاعيلتان الثانية والثالثة في الجزء الأول مع نظيرتيهما في الجزء الثاني .

واختلفت الأولى في الجزء الأول مع الأولى في الجزء الثاني حيث جاءت الثانية سليمة من الحذف والإسكان واعتري الأولى بعض ذلك .

كما وزنوا قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۗ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق: ٢، ٣) . ونسبوه إلى بحر المتقارب .

وقوله تعالى : ﴿ هَيْبَاتٌ هَيْبَاتٌ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ (المؤمنون: ٣٦) وقالوا : إنه على غرار بحر السريع <sup>(١)</sup> .

ومما أشبه الشعر أيضاً قوله تعالى : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ ﴾ (آل عمران: ٩٢) .

وبدهي أن موافقة هذه الآيات لبعض أوزان الشعر لا تسوغ إطلاق كلمة الشعر عليه ولا المواضع التي جاء الشبه فيها ، لأن الشعر لا بد من قصد الوزن فيه والقافية والقرآن فوق ذلك .

#### ● النغم القرآني عند المحدثين :

وقد سطر المرحوم محمد عبد الله دراز في كتابه «النبأ العظيم» فقرات جد رائعة في هذا المجال من الخير أن نجتزئ ما تيسر منها :

(١) ورد هنا في كثير من كتب المحدثين مثل : «التفكير فريضة إسلامية للعقاد ص ١١٤ ، ومن بلاغة القرآن : للدكتور أحمد أحمد بلوي ص ٢٤٥ .

قال<sup>(١)</sup>: «دع القارئ المجود يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله نازلاً بنفسه على هوى القرآن وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه، ثم انتبذ منه مكاناً قصياً<sup>(٢)</sup> لا تسمع فيه جرس حروفه ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومداتها وغنائها، واتصالاتها وسكناتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية، وقد جُرِّدت تجريداً، وأرسلت ساذجة في الهواء، فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لوجود هذا التجويد» .

وقال: «لا عجب إذن أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن في خيال العرب أنه شعر لأنها وجدت في توقيعه هزة لا تجد شيئاً منها إلا في الشعر، ولا عجب أن ترجع إلى نفسها فتقول: ما هو شعر، لأنه - كما قال الوليد - ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده .. ثم لا عجب أن تجعل مرد هذه الحيرة أخيراً إلى أنه ضرب من السحر لأنه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حد وسط، فكان لها من النثر جلالة وروعة، ومن الشعر جماله ورونقه»<sup>(٣)</sup> .

هذا كلام حق، ووصف دقيق يمسه كل عاقل متأمل في كتاب الله، وقد أثار الكاتب في الجزء الأخير الذي نقلناه عنه قضية لها خطورتها في مجال بحثنا هذا .

### ● مطاعنهم في القرآن .. مبعثها الإعجاب :

وهي أن العرب الذين لم يستجيبوا لدعوة الإسلام، وعارضوا الدعوة وصاحبها عليه السلام حين تلمسوا وجوه الطعن في القرآن الكريم لم يخرجوا عن كونه أساطير الأولين ... أو سحراً يؤثر، أو رثياً من الجن، أو هو شعر، وقالوا مرة: إنما يُعلمه بشر .

(١) النبا العظيم، الدكتور محمد عبد الله دراز ص ٩٥ .

(٢) هي في الأصل: «قسياً»، والصحيح ما ذكرناه .

(٣) النبا العظيم، الدكتور محمد عبد الله دراز ص ٩٧ .

وهذه النسب - كما زعموا - إنما صاروا إليها لأنهم وجدوا في القرآن عِزَّةً وغبابة فقالوا : إنه سحر أو أساطير الأولين ، والسحر - كما هو معروف - يُنسب إليه ما لا تجري به العادة فدلّت هذه النسبة على أنهم كانوا يرون أنفسهم دونه ، أما الغرابة التي أحسوها فيه فهي تتمثل في نسبته إلى أساطير الأولين ، والأسطورة ذات دلالة غنية من أجلها تتناقلها الأجيال ، وما زال العُرف يطلق كلمة أسطورة على كل غريب خارق ، أما نسبته إلى الجن فهم كانوا يعتقدون أن للإجادة في فن القول شيطاناً ملهماً ، وهذا يفسر لنا - أيضاً - إحساسهم القوي بسمو القرآن وبلوغه حدّاً في الإعجاز جفّت دونه الأقلام .

وحتى عندما سوّلت لهم أنفسهم أن ينسبوا تعليمه - عليه السلام - إلى بشر .. نسبوه إلى من هو خارج عن بيتهم ، بدليل رد القرآن عليهم :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (النحل: ١٠٣) .

#### ● لماذا سموه شِعراً :

إنهم حين نسبوه إلى فن من فنونهم لم يتجاوزوا به حد الشُّعر ، فلم يقولوا إنه خطب ولا نثر مسجوع كسجع الكهان ، لم يقولوا شيئاً من ذلك ، وإنما قالوا هو شِعْر .

والعِلَّة واضحة هي لما لمسوه فيه من إيقاع موسيقي شجي ، ونغم صوتي ساحر يحسونه ويتذوقونه ويسجدون إعجاباً به بينهم وبين أنفسهم وإن عاندوا وكابروا ظاهراً .

وللشُّعر في دولتهم دولة ، وفي حياتهم حياة ، وهذه النسبة - كذلك - ترينا - أحبوا أم كرهوا - ما للقرآن عندهم وفي قرارة أنفسهم من منزلة صغروا أمامها ، ونبأت طعونهم عنها من حيث لا يشعرون .

والخلاصة ... أن قريشاً حين أرادت أن تنفي عن القرآن كونه وحياً من عند الله لم تنسبه إلا إلى ما تدين له أنفسهم بالولاء لأنه فوق الطاقة بعِزّته وغبابته ، وما من شأنه أن يستولى على شعور الناس ويأسر ألبابهم .

## ● خاصتان بارزتان :

في القرآن خاصتان صوتيتان بارزتان ، هما : الإطلاق والتقييد ، أو الإرسال من القيود والتسجيع ، في القرآن إرسال ، وفيه سجع ، ولا يتنافى هذا مع جلال القرآن وإعجازه .

لأن إطلاقه لم يأت إلا فيه ، وسجعه - كذلك - فريد لم يحظ بشرفه غيره ، هما مخالفان لما يتناوله الناس من قول .

القرآن يلتزم حروف السجع في أكثر من موضعين متجاورين ، وهو أدنى حد للسجع وقد يأتي بالسورة كلها مسجوعة على حرف واحد .

خذ - مثلاً - سورة القمر ، تجد أنها مسجوعة على حرف الراء من أول آية فيها حتى آخر آية .

﴿ أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾ .

وقد جاءت في سورة «عبس» عشر آيات مسجوعة على حرف واحد هو «الألف» كما لازم حرف السجع فيها قصر الآيات وجزالة الألفاظ ، لأن المقام مقام عتاب وتوجيه .

## ● النغم في الآيات القصار :

وتزداد ظاهرة الإيقاع الصوتي في القرآن وضوحاً إذا قصرت الآيات وكان السجع ملحوظاً في فواصلها ، وقد تفصل جمل السجع بجمل غير مسجوعة ، أو جمل .

ويلحظ الباحث - أحياناً - في الجملة غير المسجوعة التي توسطت جملاً مسجوعة معنى خاصاً أبرزها في ذلك المظهر الفريد بين أخوات لها وأشباه .

ولننظر في النص الآتي من سورة عبس :

﴿ قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ  
فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٢﴾  
كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ  
صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَيْنًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾  
وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَيْكِهَةً وَأَبًا ﴿٣١﴾ مَتْنَعًا لَكُمُ وَاللَّاتُغَمِيمُ ﴿٣٢﴾  
فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُيُمِيهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾  
وَصَدِيقَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أُمَّرٍ يَوْمَئِذٍ مَنِيذِرٌ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ  
مُتْسِفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاكِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبْرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرَهَقَهَا فَتْرَةٌ  
﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٤٢﴾ (عبس: ١٧-٤٢).

في هذا النص الحكيم جاءت كلمة «طعامه» فاصلة بين مجموعتين من الآيات ، الأولى مسجوعة على حرف واحد هو الهاء ، والأخرى مسجوعة على الألف ، وحرف السجع في النوعين قد يلتزم معه حرف آخر يزيد به الإيقاع وضوحًا ، والنظر في النص كاف لإدراك هذا الملحظ .

كذلك فإن كلمات السجع قد تتساوى في الوزن من حيث عدد الحروف والحركات والسكنات ، ولعل السر في الفصل بين هاتين المجموعتين المسجوعتين بالفاصلة «طعامه» مع آيتها لأن هذه الآية رأس موضوع جديد وإجمال مشوق أعقبه تفصيل حكيم : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ ؟

هذه إثارة وتهيئة للشعور حتى يخلو من كل شاغل يلهيه عن تقرير واستيعاب شرح هذه الفكرة .

### ● مراحل إعداد الطعام :

وقد صدرت هذه الإثارة بلام الأمر ولفت الأنظار لفتًا قويًا إلى الطعام الذي هو عند الإنسان قوام حياته وضمنان أمنه وعدة مستقبله .

فهذا التباين في المعنى حمل - والله أعلم - على التباين في اللفظ ، ثم جاءت الآيات تترى واحدة إثر أخرى تبين مراحل إعداد الطعام .

بادئة بالمرحلة الأم : ﴿ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ والتعبير بـ «الصب» موح بكثرة الماء النازل من السماء لتحيا به الأرض وتنبت من كل زوج بهيج .

ثم نَتَّت بالمرحلة الثانية : ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾ والتعبير بحرف العطف «ثم» دون غيره من حروف العطف صنع حكيم ، لأن انشقاق الأرض بالنبات لا يكون عقب صب الماء مباشرة بل هناك زمن فاصل بين المرحلتين فجاءت «ثم» لإفادة الترتيب مع التراخي مع اللازم .

ثم كانت المرحلة الثالثة : ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ وبين هذه المراحل الثلاث ترتيب في الوجود كما رتبت في الأسلوب .

ولما كان إنبات الحَبِّ وما أشبه يُرى إثر انشقاق الأرض لأنها لا تنشق إلا به ، وكان الفاصل بينهما دقيقًا إلى درجة التلازم في الوجود جاء حرف العطف «الفاء» المفيد للتعقيب مع الترتيب ، وبهذا تنتهي مراحل إعداد الطعام الثلاث . ولما كان العطف فيما بقي ليس عطف مرحلة على مرحلة ، وإنما عطف جزء من المرحلة - الأخيرة - على جزء آخر منها ، وهذه الأجزاء لا يتصور فيها سابق ولا لاحق بل قد تنبت متصاحبة أو متفرقة دون أن يكون لتفرقتها في الإنبات دور وعظي تؤديه ، لهذه الاعتبارات كلها كان حرف العطف «الواو» إذ هي أليق بالمقام لأنها لا تفيد ترتيبًا ولا تعقيبًا ولا تراخيًا ، بل هي - كما هو معلوم - لمجرد العطف .

وفي تقديم الحَبِّ على النِّعَمِ المذكورة فيه ، وجعله أصلًا صالحًا للعطف عليه سر دقيق ، ذلك لأن الحَبَّ يُصنع منه الخبز وهو أهم ما يعتمد عليه الإنسان في حياته وحفظها ، أما الأخرى فهي نعم - وإن كان لها دور كبير في حياة الإنسان - فإنها دونه .

وكما خولف في فاصلة رأس الموضوع : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾  
خولف - كذلك - في نهايته : ﴿ مَتَعَا لَكُمُ وَلَا تَعْمِكُمْ ﴾ .  
● مشاهد مطوية :

وانتهت مراحل إعداد الطعام عند هذا الحد ، ولم يدخل فيها جمع الزرع  
وحصده ... ودرسه وتذريته ثم طحنه وخبزه .  
وهذه خطوات سابقة ضرورة لانتفاع الإنسان بما يطعم ، لكن القرآن طوى  
ذكرها ولم يتعرض لها .

والسر : أن هذه الخطوات إنما يقوم بها الإنسان نفسه ، وليست من مراحل  
التكوين بل هي مراحل ثانوية مختصة بتهيئة « الذوات » بعد تكوينها وإيجادها  
وغرضها إدخال صفات عليها تجعلها قابلة للانتفاع بها في مراحلها النهائية .  
وبعد هذا البيان الراشد ، نجد أنفسنا أمام رأس موضوع آخر ، وإجمال  
أعقبه تفصيل كذلك .

### ● مشهد أخروي مشير :

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ﴾ وقد صنع بفاصلته كما صنع بفاصلة رأس  
الموضوع السابق ، فجاءت مخالفة لما سبق وما لحق .  
ثم سلك القرآن في تفصيله وبيانه ، مثل ما سلك في تفصيل وبيان رأس  
الموضوع السابق .

آيات كاشفة ذات وزن متحد - تقريباً - وفواصل متحدة موزونة زنة واحدة  
كذلك ، وقد جاء هذا التفصيل في مجموعتين من الآيات ، كل منهما تُصوّر  
جانباً خاصاً .

المجموعة الأولى : تتحدث عما ينتاب الناس - جميعاً - من أهوال تزول  
تحت وطأتها الروابط الوثيقة التي كانت بينهم في الحياة الدنيا .  
والمجموعة الثانية : تتحدث عن صفات الفريقين التي سيصير إليها الناس ،  
حسب ما قدموه من أعمال : صالحين ، وطالحين .

وقد اختصت كل من المجموعتين بفاصلة خاصة ، الأولى كانت فاصلتها « هاء المفرد الغائب » تالية لحرف مد « الياء » وهي : « أخيه - أبيه - بنيه - يغنيه » .

والثانية جاءت فاصلتها « التاء المربوطة » تالية للراء المفتوحة ، وهي : « مسفرة - مستبشرة - غبرة - قتره - الكفرة » .

فانظر لهذه السياسة الحكيمة في بناء الأسلوب ، والملاءمة التامة بين ألفاظه ومعانيه وتوزيع الحركات والسكنات على نهج فريد ، « يدرك بالذوق والحس ، ولا تحده الرسوم ولا الضوابط » .

### ● هندسة الجمل :

وقد تكون الجملتان المسجوعتان متوازنتين في القصر ، كما في مطلع سورة « التكوير » : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ (التكوير: ١-٤) .

وكما في مطلع سورة « الواقعة » : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِيُوقِعَيْهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَنُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ (الواقعة: ١-٧) .

وقد يكون التوازن بينهما في الطول ، ومرسلتان في ما عدا الفواصل ، وهما في إرسالهما مخالفتان لمرسل الناس لوجود الفاصلة المتحددة أو المتماثلة في آخرها ، ومن هذا النوع أغلب آي القرآن الكريم .

### ● ثلاث فواصل متحددة :

ومنه مثلاً قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴿١﴾ وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ﴿٢﴾ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴿٣﴾ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴿٤﴾ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿٦﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧﴾ \* قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْيَتِيمَتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ  
الْعَلَمِينَ ﴿ (غافر: ٦٤-٦٦) .

هذه ثلاث آيات اتحدت فواصلها فجاءت كلمة واحدة : ﴿ رَبُّ  
الْعَلَمِينَ ﴾ ومع هذا التكرار في الفاصلة لم تحس في التعبير إلا جمالاً  
وجدة خرج معها التكرار مخرج الجودة والحسن .

نعم .. الفاصلة متحدة لفظاً ومعنى في المواضع الثلاثة ، ولكن ما قبل  
الفاصلة مختلف من موضع إلى آخر .

ففي الآية الأولى جاءت : ﴿ رَبُّ الْعَلَمِينَ ﴾ بدلاً ، أو صفة لاسم  
الجلالة ، وهي على كلا الاحتمالين مرفوعة الصدر .

وفي الموضع الثاني جاءت مجرورة عليهما أيضاً ، وكذلك في الموضع  
الثالث ، هذا من حيث ضبطها في اللفظ .

وأما من حيث تعلقها مع ما جاءت بدلاً منه أو صفة له ، ففيه سر أسر .

في الأولى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَلَمِينَ ﴾ .

وفي الثانية : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَلَمِينَ ﴾ .

وفي الثالثة : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَلَمِينَ ﴾ .

والمأمل يجد بين المواضع الثلاثة تسلسلاً مرتباً ترتيب المسبب على  
السبب فالتبارك مستوجب للحمد ومن تحقق له هذان الغرضان وشعر بعظمة  
الله وفضائله وحمده عليه وجب أن يسلم له ويخضع لإرادته ، وهذا التغاير في  
المعنى هو موطن السر في خفة روح التكرار فيه وخلاصة أثره لفظاً ومعنى .

وهذه الجودة في المواضع الثلاثة وقفت أمام كثير من الأهواء الزائفة التي  
تتخذ من صور التكرار في القرآن وجوهاً للطعن فيه ، ونحن نعلم أن التكرار  
غير المفصول بين مواضعه بفواصل طويلة ، يعد عيباً من عيوب القافية ، وقد  
سماه العروضيون « الإيطاء » ، لكن هذا العيب لا مفهوم له هنا على رغم

ما هو وجيه هناك ، لأن التصرف في الشكل إذا تطلبه المعنى كان بعيداً عن كل نقد .

وقد جاء هذا التكرار في الفاصلة في سورة البقرة في ثلاث آيات متتابعة هي :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيْطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا حَنُّ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِمْ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ١٠١-١٠٢) .

وإن كان لابد من كلمة - هنا - فإننا نلاحظ :

أولاً : أن ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ في الآية الأولى واقعة في حيزِ النفي من حيث الظاهر وإلا فالمقام مقام إثبات إذ هم يعلمون ، وإنما شبه حالهم لكونهم قد صدر منهم فعل لا يصدر إلا ممن لا يعلم - وهو نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم - بحال من لا يعلم وفي الواقع هم عالمون ، فنزل علمهم حيث لم ينتفعوا به منزلة الجهل .

ثانياً : أن الآية الثانية قد طالت بحيث لا يظهر مع طولها تكرر الفاصلة مع ما قبلها - هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإن لفظ « العلم » قد تكرر فيها مرات ، لكنه يتردد بين الممدوح والمذموم كتعلم السحر ، ثم ذكر لفظ ، « العلم » قبل الفاصلة ليمهد للحكم عليهم فقال : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ ﴾

مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِمَنَ أَنْفُسِهِمْ<sup>٤</sup> لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ .

وكون الفاصلة هنا - كذلك - مسلك اقتضته البلاغة ، ودعا إليه المعنى توبيخاً لهم وإظهاراً لحقارة ما تعلموه من فن السحر والأباطيل .

وجاءت الفاصلة في الآية الثالثة مماثلة للثانية تماماً : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ لأن الآية الثالثة تأكيد لما جاء في عجز الثانية ، لذلك اتحدتا في الفاصلة .

وهذا - كما سبق - أمر اقتضاه المعنى في المواضع الثلاثة ، وهذا شرط حسنها والحرص على الإتيان بها متماثلة .

### ● مغزى الفاصلة معنوي أولاً :

قال الزمخشري في كشافه القديم : « إنه لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجرددها إلا مع بقاء المعاني على سدادها على المنهج الذي يقتضيه حسن النظم والتثامه - كما لا يحسن تخير اللفظ الموثق في السمع ، السلس على اللسان إلا مع مجيئه منقاداً للمعاني الصحيحة المنتظمة ، فأما أن تهمل المعاني ويهتم بتحسين اللفظ وحده ، غير منظور فيه إلى مؤداه على بال ، فليس من البلاغة في فتيل أو نقيير ، ومع ذلك يكون قوله : ﴿ وَيَا آخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة: ٤) ، وقوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة: ٣) لا يتأتى فيه ترك التناسب في العطف بين الجمل الفعلية إشاراً للفاصلة لأن ذلك أمر لفظي لا طائل تحته ، إنما هنا إلى قصد الاختصاص<sup>(١)</sup> .

### ● شمس الدين ابن الحنفي ، والفواصل القرآنية :

ولما كانت الفواصل تؤدي دوراً مهماً في الإيقاع الصوتي في القرآن الكريم ، إلى جانب دورها المهم في تأكيد المعاني وإيضاحه فقد سلك بها

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٧٢/١ (بتصرف يسير) .

مسلك خاص ، وقد جمع شمس الدين ابن الحنفي أربعين ملحظًا لغويًا روعيت من أجل المعنى ، وكانت أنسب من حيث النغم الصوتي في رءوس الآي .. ونحن نوجز ما ذكره مع تعليق لنا عليه :

- ١- تقديم المعمول ، إما على العامل نحو : ﴿ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (سبأ: ٤٠) ، أو على معمول آخر أصله التقديم نحو : ﴿ لِئُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ (طه: ٢٣) .. والأصل عنده : «لنريك الكبرى من آياتنا» هذا ما يفهم من كلامه<sup>(١)</sup> ، وإما على الفاعل نحو : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ أَنذُرٌ ﴾ (القمر: ٤١) ، وكذلك تقديم خبر كان على اسمها نحو : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص: ٤) .
- ٢- تقديم ما هو متأخر في الزمان نحو : ﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ (النجم: ٢٥) .
- ٣- تقديم الفاضل على الأفضل نحو : ﴿ بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ (طه: ٧٠) .
- ٤- تقديم الضمير على ما يفسره نحو : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ﴾ (طه: ٦٧) .
- ٥- تقديم الصفة الجملة على الصفة المفردة نحو : ﴿ وَخَرَجَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ (الإسراء: ١٣) .
- ٦- حذف ياء المنقوص : ﴿ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ (الرعد: ٩) و ﴿ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ (غافر: ٣٢) .
- ٧- حذف ياء الفعل غير المجزوم نحو : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ ﴾ (الفجر: ٤) .
- ٨- حذف ياء الإضافة نحو : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ (القمر: ١٦) .
- ٩- زيادة حرف المد ، مثل : ﴿ الظُّنُونَا ﴾ (الأحزاب: ١٠) و ﴿ السَّبِيلَا ﴾ (الأحزاب: ٦٧) و ﴿ الرُّسُولَا ﴾ (الأحزاب: ٦٦) قال : ومنه إيقاؤه مع الجازم

(١) انظر : الإتيقان في علوم القرآن للسيوطي : ٩٨/٢ .

نحو : ﴿ لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ (طه: ٧٧) و ﴿ سُنُقِرْتُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ (الأعلى: ٦) على القول بأنه نهي<sup>(١)</sup> .

١٠- صرف ما لا ينصرف نحو : ﴿ قَوَارِيرًا ﴾ ﴿ قَوَارِيرًا ﴾ (الإنسان: ١٥، ١٦).

١١- إشار تذكر اسم الجنس كقوله : ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ (القمر: ٢٠) .

١٢- إشار تأنيثه نحو : ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (الحاقة: ٧) .

١٣- الاقتصار على أحد الوجهين الجائزين اللذين قرئ بهما في السبع في غير ذلك نحو : ﴿ فَأَوَّلَتْكِ تَحْرُورًا رَشَدًا ﴾ (الجن: ١٤) قال : « ولم يجرى رشداً في السبع » ، وكذا : ﴿ وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (الكهف: ١٠) لأن الفواصل في السورتين محركة الوسط<sup>(٢)</sup> .

يقصد أن فتح « الشين والراء » في هذين الموضعين لم يجمع عليهما القراء السبعة وقد جاء خلاف ذلك في غير هذين الموضعين نحو : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ ﴾ (الأعراف: ١٤٦) بضم الراء وسكون الشين .

قال : ونظير ذلك قراءة : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد: ١) بفتح الهاء وسكونها ، ولم يقرأ : ﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ هَبٍ ﴾ (المسد: ٣) إلا بالفتح لمراعاة الفاصلة<sup>(٣)</sup> .

١٤- إيراد الجملة التي رد بها ما قبلها على غير وجه المطابقة في الإسمية والفعلية نحو : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٨) لم يطابق فيقول : « لم يؤمنوا » لذلك .

١٥- إيراد أحد القسمين غير مطابق للآخر كذلك ، نحو : ﴿ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴾ (العنكبوت: ٣) لم يقل : « كذبوا » .

(١، ٢، ٣) انظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ٩٨/٢ .

١٦- إيراد أحد جزئى الجملتين على غير الوجه الذي أورد عليه نظيرها من الجملة الأخرى نحو : ﴿ أَوْلَيْتِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأَوْلَيْتِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧) .

١٧- إيثار أغرب اللفظين نحو : ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ (النجم: ٢٢)، ونحو : ﴿ لَيْبَدَنَّ فِي الْخَطْمَةِ ﴾ (الهمزة: ٤) بدل : « جهنم » . وقال في المدثر : ﴿ سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ﴾ (المدثر: ٢٦)، وفي سأل : ﴿ إِنَّا لَطَىٰ ﴾ (المعارج: ١٥) ، وفي القارعة : ﴿ فَأَمُهُرُ هَاوِيَةٌ ﴾ (القارعة: ٩) لمراعاة الفواصل في كل سورة .

١٨- اختصاص كل من المشتركين بموضع نحو : ﴿ وَلْيَذَكِّرُوا وَلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (إبراهيم: ٥٢) ، وفي طه : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (طه: ٥٤) .

١٩- حذف المفعول نحو : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴾ (الليل: ٥) ، ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (الضحى: ٣) .

ومنه حذف متعلق أفعل التفضيل : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ ﴾ (طه: ٧) و ﴿ خَيْرٌ وَأَتَقَىٰ ﴾ (طه: ٧٣) .

٢٠- الاستغناء بالإفراد عن التثنية نحو : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ (طه: ١١٧) .

٢١- الاستغناء به عن الجمع ، نحو : ﴿ وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (الفرقان: ٧٤)، ونحو : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ ﴾ (القمر: ٥٤) لم يقل : « أئمة » ، ولا « أنهار » كما ورد في غير هذين الموضعين .

٢٢- الاستغناء بالتثنية عن الإفراد نحو : ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ (الرحمن: ٤٦) فتثني لأجل الفاصلة ، ومثله : ﴿ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ (الشمس: ١٢) فإنهما رجلان ، ولم يقل : « أشقيها » للفاصلة .

٢٣- الاستغناء بالتثنية عن الجمع نحو قوله : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ (الرحمن: ٤٨) .

٢٤- الاستغناء بالجمع عن الإفراد نحو : ﴿ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ ﴾ (إبراهيم: ٣١) أي : ولا خلة ، فجمع للفاصلة .

- ٢٥- إجراء غير العاقل مجرى العاقل : ﴿ كَلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٣) و﴿ رَأَيْتُمْ لِي سَنَجِدِينَ ﴾ (يوسف: ٤) .
- ٢٦- إمالة ما لا يمال كأي طه والنجم .
- ٢٧- الإتيان بصيغة المبالغة نحو : « قدير » و« عليم » مع ترك ذلك في بعض المواضع ، ومنه : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (مریم: ٦٤) .
- ٢٨- إيثار بعض أوصاف المبالغة على بعض . نحو : ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (ص: ٥) .
- ٢٩- الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، نحو : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسْمًى ﴾ (طه: ١٢٩) .
- ٣٠- إيقاع الظاهر موقع الضمير ، نحو : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (الأعراف: ١٧٠) .
- ٣١- وقوع مفعول موقع فاعل ، نحو : ﴿ حِجَابًا مُّسْتُورًا ﴾ (الإسراء: ٤٥) أي ساتر .
- ٣٢- وقوع فاعل موقع مفعول ، نحو : ﴿ فَهَوِيَ فِي عَيْشِهِ رَاضِيَةً ﴾ (الحاقة: ٢١) ، وقوله : ﴿ خَلِقَ مِنْ مَّاءٍ ذَافِقٍ ﴾ (الطارق: ٦) .
- ٣٣- الفصل بين الصفة والموصوف ، نحو : ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ (الأعلى: ٥) إن أعرب « أحوى » صفة للمرعى أي حالاً .
- ٣٤- إيقاع حرف مكان غيره ، نحو : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ (الزلزلة: ٥) أي إليها .
- ٣٥- تأخير الوصف الأبلغ ، ومنه : ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة: ٣) .
- وفي هذا الموضع قصور في التعبير ، لأن الأولى أن يقول : تأخير الوصف الأبلغ عما هو دونه .

٣٦- حذف الفاعل ونيابة المفعول، نحو: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴾ (الليل: ١٩) .

٣٧- إثبات هاء السكت، نحو: ﴿ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴾ (الحاقة: ٢٩) .

٣٨- الجمع بين المجرورات نحو: ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ (الإسراء: ٦٩) قال: «فإنَّ الأحسن الفصل بينها إلا أن الفاصلة اقتضت عدمه وتأخير: تبيعاً» .

٣٩- العدول عن صيغة الماضي إلى الاستقبال: ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (البقرة: ٨٧) .

٤٠- تغيير صيغة الكلمة، نحو: ﴿ وَطُورٍ سَيْنِينَ ﴾ (التين: ٢) . والأصل: سيناء<sup>(١)</sup> .

### ● وقفة ناقدة :

الحقيقة التي يجب التسليم بها - ولا بديل لذلك أبداً - أن تحقيق الانسجام الصوتي في القرآن الكريم قد اختص بمثل هذه العوامل .

على أن الحقيقة يجب أن تُشفع بحقيقة أخرى، مؤداها: أن هذه التسهيلات لم تكن لرعاية اللفظ على جانب المعنى وإلا ما كنا نرى في أي القرآن مواضع كثيرة - وكثيرة جداً - تركت تلك الرعاية اللفظية وخولف بين الفواصل فيها مع إمكان مجيئها على نسق واحد .

فهذه التسهيلات إنما أوفت بحق المعنى كما أوفت بحق اللفظ ولا شك في أن ما كان شأنه كذلك كان بالجودة والحسن أولى .

ولنذكر لذلك مثلاً :

قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْمِعْ أَنْ يَسْمِعَكَ اللَّهُ وَتَنْبِئَكَ بِمَا أَنْتَ فِيهَا تُنْهَوْنَ عَنْهَا وَإِذْ يَسْمَعُ الْوَسْوَاسِ الْخَفِيِّ مِمَّا أَنْتَ تُسْمِعُ بِهِ ﴾ (الإسراء: ٤٥) جاءت هذه الآية في سياق فاصلتها الرء المسبوقة بحرف مد، والحجاب يكون ساتراً لا مستوراً، فكان أن يقال: «ساتراً» .

(١) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي: ٩٩/١، ١٠٠ .

وهذا أغرى صاحب الملاحظات أن يقول : إن وقوع مفعول مكان فاعل إنما جاء من أجل الرعاية اللفظية ، وهذا وهم .

وإنما الداعي إلى ذلك هو المبالغة في قوة المعنى ، وأن الحجاب الذي جعلَ بين الكافرين وبين الرسول وما يتلوه من آيات بيّنات ، لعدم انتفاعهم بها وشدة نفورهم عنها ، كاد يكون لقوة ستره مستوراً ، أي أن أثره تعدى موضعه حتى شمل الحجاب نفسه ففي التعبير تخييل على حد قول الشاعر :

وَمَا أَنَا وَخَدِي قُلْتُ ذَا الشَّعْرُ كُلُّهُ      وَلَكِنْ لِشِعْرِي فَيْكَ مِنْ نَفْسِهِ آيَاتُ شِعْرِي  
ففي العبارة مجاز عقلي ، وكذلك يقال في قوله تعالى : ﴿ فَهَوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ (الحاقة: ٢١) مما أطلق عليه : إيقاع فاعل موقع مفعول .

وقد ذهب - كذلك إلى أن إجراء غير العاقل مجرى العاقل من أجل رعاية الفاصلة ، والواقع يخالفه .

لأن العِلَّةَ في إجرائه هذا المجرى أن أسند إليه من الأعمال ما لا يصدر إلا عن العاقل ، وواضح أن السجود والسيح من أعمال العاقلين ، ذلك هو السبب ، وليس رعاية الفاصلة وحدها كما زعم .

والتعبير بهذا الأسلوب فيه تحقيق للمعنى وتقوية ، فالسجود الصادر من الشمس والقمر والكواكب مماثل لما يصدر ممن هو أهل له في الفهم والإدراك .

والسيح الصادر منهما مماثل لسباحة السباحين الماهرين في السهولة والانبساط<sup>(١)</sup> والانتظام حيث لا اضطراب فيه ، ولا اختلاف في سيره .

وهذه ظاهرة أسلوبية في القرآن لم تقف عند ما ذكره ، فقد جاء فيه عن الأرض والسماء : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (فصلت: ١١) وغير ذلك كثير .

(١) تفسير أبو السعود : ٣٨١/٤ .

على أن بعض المواضع التي ذكرها تبدو عليها سمة الضعف ، إذ لا دليل له فيما ذكره من حذف الياء لأجل المفاضلة مستشهداً بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ﴾ (الفجر: ٤).

إذن فماذا يصنع بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ (الكهف: ٤) ، وقوله : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى ﴾ (الأعراف: ١٧٨) وليساً برأسي آية ؟

ومثلها في الضعف ما ذكره من تقديم هارون على موسى ، وقد ناقشنا هذا في البحث السابق ، بما لا حاجة إلى ذكره هنا .

وكذلك ما ذكره دليلاً على الفصل بين الصفة والموصوف : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿١﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ (الأعلى: ٤، ٥) حيث جوز أن يكون « أحوى » صفة للمرعى ليسلم له الدليل وما الداعي لذلك ؟ ولماذا لا يكون « أحوى » صفة « غثاء » ؟

#### ● توجيه ابن أبي الإصبع لموضع مماثل :

والذي يجب التنبيه عليه هنا - أيضاً - أن القرآن الكريم يرى - أحياناً - قد سلك مسلكاً يبدو مخالفاً للعرف اللغوي والنحوي حسبما هو مشهور عند العلماء ، لكن كل موضع حدث فيه ذلك يتضح من البحث العميق فيه ألا مجافاة ولا مخالفة لغوية ولا نحوية وإنما هو أسلوب محكم قد بدت فيه اللغة في أسمى ما تكون .

ونسوق مثلاً على ذلك :

قال الله تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذَىٰ ۗ وَإِن يُقْتَلُواكُم يُولُوكُمْ ۖ إِلَّا ذَبَابًا ۗ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (آل عمران: ١١١) .

قال ابن أبي الإصبع في توجيه هذه الآية : « فإن على ظاهر هذه الآية إشكالين : أحدهما من جهة الإعراب ، والآخر من جهة المعنى ، فأما الذي من جهة الإعراب فعطف ما ليس بمجزوم على المجزوم ، والذي من جهة المعنى

أَنَّ صدر الآية يغني عن فاصلتها لأن توليهم عند المقاتلة دليل على الخذلان ...  
والخذلان والنصر لا يجتمعان» .

«والجواب أن الله سبحانه وتعالى أخبر المؤمنين بأن عدوهم هذا إن قاتلهم  
انهزم . ثم أراد - وهو أعلم - تكميل القوة بإخبارهم أنه مع توليه الآن لا يُنصر  
أبدًا في الاستقبال ، فهو مخذول أبدًا ما قاتلهم ، فيثق المؤمنون بنصر الله تعالى  
لهم على هذا العدو ، ويتيقنوا أنه متى قاتلهم كان مخذولاً ، فيقدموا على لقائه  
كلما أرادوا ذلك بثبات قلوب ، وقوة نفوس ، لا يتوقفون في لقائه ولا يخشون  
مغبة قتاله ، ولو وقع الاقتصار على دون الفاصلة لم يوف الكلام بهذا المعنى ،  
لأنه لا يعطي قوله : ﴿ وَإِنْ يَقْبِضُوكُمْ يُؤَلِّمُكُمْ أَلدَّبَارَ ﴾ أنهم متى قاتلوهم كان  
الأمر ذلك ... ولما علم سبحانه - وهو أعلم - أن الاقتصار على ما دون الفاصلة  
لا يفهم منه دوام هذه البشارة إلى آخر الأبد ، والمقصود دوامها قال : ﴿ ثُمَّ  
لَا يُنصَرُونَ ﴾ . ومنع الفعل الجزم ، وإن عطف على مجزوم ليبقى المعنى  
الذي وضعت له صيغة المضارع من الدلالة على الحال والاستقبال ، فيعلم أنه  
أراد - وهو أعلم - أنهم لا يُنصرون في الحال ، ولا في الاستقبال ، ونوى من  
الفعل الاستئناف لا العطف على ما تقدم فيُقَدَّر أنه قال : «ثم هم لا يُنصرون» ..  
وأحسن ما وقع في هذا النظم اختيار لفظة «ثم» دون سائر حروف العطف  
لما تدل عليه من التراخي والمهلة الملازمة لما قصد من الاستقبال فاتضح  
المعنى وارتفع الإشكال ، وتضمنت هذه اللفظات السبع : ستة عشر ضرباً من  
البديع : «التعليق ، والمطابقة المعنوية ، والاحتراس ، والتكميل ، والتنكيث ،  
والمقارنة ، والإيضاح ، والإدماج ، والترشيح ، والإيغال ، والإيجاز ، والافتنان ،  
وحسن النسق ، والتهذيب ، وحسن البيان ، والمثل السائر» . وأعجب ما وقع  
فيها أن حرفاً واحداً منها وقع فيه - على انفراد - ثمانية أضرب ، والحرف  
لفظة «ثم» وقع فيها الاحتراس والتنكيث والمقارنة والإيضاح ، والإدماج

والتكميل ، وحسن النسق والترشيح ، توجد هذه الضروب بوجودها وتعدم  
بعدها ، وبيان هذا أننا لو قدرنا موضعها «الواو» لسقط ذلك كله<sup>(١)</sup> .

وقد فات هذا الموضوع ابن الصائغ ولو وقف عليه لسماه : «عطف المرفوع  
على المجزوم» ، كما فات صاحب «البرهان» الذي راح يردد ما قاله متفقاً  
ومخالفاً<sup>(٢)</sup> .

### ● التكرار :

يقع التكرار في القرآن الكريم على وجوه :

١- مرة يكون المكرر أداة تؤدي وظيفة في الجملة بعد أن تستوفى ركنيها  
الأساسيين .

٢- وأخرى تتكرر كلمة مع أختها للداع ، بحيث تفيد معنى لا يمكن الحصول  
عليه بدونها .

٣- فاصلة تكرر في سورة واحدة على نمط واحد .

٤- قصة تتكرر في مواضع متعددة مع اختلاف في طرق الصياغة وعرض  
الفكرة .

٥- بعض الأوامر والنواهي والإرشادات والنصح مما يقرر حكماً شرعياً  
أو يحث على فضيلة أو ينهى عن رذيلة أو يرغب في خير أو ينفر من  
شر .

وتكرر القرآن في جميع هذه المواضع التي ذكرناها ، والتي لم نذكرها ،  
مما يلحظ عليها سمة التكرار ، في هذا كله يباين التكرار القرآني ما يقع في  
غيره من الأساليب لأن التكرار وهو فن قولي معروف ، قد لا يسلم الأسلوب  
معه من القلق والاضطراب فيكون هدفاً للنقد والطعن ، لأن التكرار رخصة في  
الأسلوب - إذا صح هذا التعبير - والرخص يجب أن تؤتى في حذر ويقظة .

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٢٦١-٢٦٣ مع تصرف يسير للحذف (تحقيق  
محمد حفني شرف).

(٢) انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٦٧-٦٠/١ .

## ● وظيفة التكرار في القرآن :

مع هذه المزالق كلها جاء التكرار في القرآن الكريم محكمًا ، وقد رد فيه كثيراً - فليس فيه موضع قد أخذ عليه - بله دعاوي المغالين فإن بينهم وبين القرآن تارات فهم له أعداء - وإذا أحسنا الفهم لكتاب الله فإن التكرار فيه - مع سلامته من المآخذ والعيوب - يؤدي وظيفتين :

أولاهما : من الناحية الدينية .

ثانيتها : من الناحية الأدبية .

فالناحية الدينية - باعتبار أن القرآن كتاب هداية وإرشاد وتشريع - لا يخلو منها فن من فنونه ، وأهم ما يؤديه التكرار من الناحية الدينية هو تقرير المكرر وتوكيده وإظهار العناية به ليكون في السلوك أمثل وللاعتقاد أبين .

أما الناحية الأدبية فإن دور التكرار فيها متعدد وإن كان الهدف منه في جميع مواضعه يؤدي إلى تأكيد المعاني وإبرازها في معرض الوضوح والبيان .  
وليكن حديثنا عنه على حسب المنهج الذي أئبته في صدر هذا البحث .

## ● تكرار الأداة :

ومن أمثلتها قوله تعالى : ﴿ تُمْرُ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا تُمْرُ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(النحل: ١١٠).

وقوله تعالى : ﴿ تُمْرُ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (النحل: ١١٩).

والظاهر من النظر في الآيتين تكرار «إن» فيهما ، وهذا الظاهر يقتضي الاكتفاء بـ «إن» الأولى ، ولم يطلب إلا خبرها ، وهو في الموضعين - أعني الخبر - «لغفور رحيم» لكن هذا الظاهر خولف وأعيدت «إن» مرة أخرى ، ولهذه المخالفة سبب .

وهذا السبب هو طول الفصل بين « إِنَّ » الأولى وخبرها ، وهذا أمر يُشعر  
بتنافيه مع الغرض المسوقة من أجله « إِنَّ » وهو التوكيد ، لهذا اقتضت البلاغة  
إعادتها لتلحظ النسبة بين الركنين على ما حقها أن تكون عليه من التوكيد .

على أن هناك وظيفة أخرى هي : لو أن قارئاً تلاهاتين الآيتين دون أن  
يكرر فيهما « إِنَّ » ثم تلاهما بتكرارها مرة أخرى لظهر له الفرق بين الحالتين :  
لَب وضعف في الأولى ، وتناسق وقوة في الثانية :

ومن أجل هذا الطول كررت في قول الشاعر<sup>(١)</sup> :

وَإِنْ أَمْرًا طَأَلْتِ مَوَائِقُ عَهْدِهِ عَلَى مِثْلِ هَذَا . إِنَّهُ لَكَرِيمٌ

يقول ابن الأثير رائيًا هذا الرأي : « ... فإذا وردت « إِنَّ » وكان بين اسمها  
وخبرها فسحة طويلة من الكلام ، فإعادة « إِنَّ » أحسن في حكم البلاغة  
والفصاحة كالذي تقدم من الآيات »<sup>(٢)</sup> .

### ● تكرار الكلمة مع أختها :

ومن أمثلتها قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ  
هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴾ (النمل: ٥) .

فقد تكررت « هم » مرتين ، الأولى مبتدأ خبرها : « الأخسرون » ، والثانية  
ضمير فصل جيء به لتأكيد النسبة بين الطرفين وهي : هم الأولى بالأخسرية .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي  
أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (الرعد: ٥) .

تكررت - هنا - « أولئك » ثلاث مرات ، ولم تجد لهذه الكلمة المكررة مع  
ما جاورها إلا حسنًا وروعة ، فالأولى والثانية : تسجلان حكمًا عامًا على  
منكري البعث : كفرهم بربهم وكون الأغلال في أعناقهم .

(١) ديوان الحماسة : ١٠٥/٢ - ولم ينسب لقائل معين .

(٢) المثل السائر لابن الأثير : ٧/٣ تحقيق الدكتور بدوي طبانة والدكتور أحمد الحوفي .

والثالثة : بيان لمصيرهم المهين ، ودخولهم النار ، ومصاحبتهم لها على وجه الخلود الذي لا يعقبه خروج منها .

ولو أسقطت ﴿ أُولَئِكَ ﴾ من الموضوعين الثاني والثالث لرك المعنى واضطرب ، فتصبح الواو الداخلة على : ﴿ الْأَغْلَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ واو حال ، وتصيح الواو الداخلة على : ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ عاطفة عطفًا يرك معه المعنى .

لذلك حسن موضع التكرار في الآية لما فيه من صحة المعنى وتقويته ، وتأكيده النسبة في المواضع الثلاثة للتسجيل عليهم .

### ● تكرار الفاصلة :

سبق أن ذكرنا في مبحث الفواصل صوراً من تكرار الفاصلة مرتين بدءاً وثلاث مرات نهاية ، وقد وجهنا أسلوب التكرار في تلك الصور ، ولكنا - هنا - أمام فاصلة لم تقف في تكرارها عند حد المرات الثلاث ، بل تعدت ذلك بكثير ، لذلك آثرنا أن نبجتها هنا إذ هي بهذا الموضع أنسب .

ونعتمد في دراستنا لتكرار الفاصلة على ثلاث سور هي : « الرحمن - القمر - المرسلات » ، وهي السور التي برزت فيها هذه الظاهرة الأسلوبية ، بشكل لم يبد في غيرها ، كما ورد فيها .

فقد تكررت : ﴿ فَبِأَيِّ آءِ آتٍ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴾ <sup>(١)</sup> في « الرحمن » ، وتكررت ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾ <sup>(٢)</sup> في « القمر » ، وتكررت : ﴿ وَذِلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ <sup>(٣)</sup> في « المرسلات » .

### ● تكرار الفاصلة في « القمر » :

ولهذا التكرار في المواضع الثلاثة أسباب ومقتضيات ، ففي سورة « القمر » نجد العبارة المكررة وهي : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾ قد صاحبت في

(١) وردت ٣١ مرة . (٢) وردت ٤ مرات . (٣) وردت ١٠ مرات .

موضع من مواضع تكرارها قصة عجيبة الشأن ، وكان أول موضع ذكّرت فيه عقب قصة قوم نوح ، وبعد أن صورَّ القرآن مظاهر الصراع بينهم وبين نوح عليه السلام ثم انتصار الله لنوح عليهم ، حيث سلَّط عليهم الطوفان ، فأغرقهم إلا مَنْ آمن وعصمه الله .

ونجد أن الله نجَّى نوحًا وتابعيه ، ولكن تبقى هذه القصة موضع عظة وادكار ، ولتلفت إليها الأنظار وللتحويل من شأنها جاء قوله تعالى عقبها : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذْرِي ﴾ مُصَدِّرًا بِاسْمِ الاستفهام « كيف » للتعجب مما كان ، ولقد مهد لهذا التعجب بالآية السابقة عليه ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ ؟ (القمر: ١٥) .

والموضع الثاني لذكرها حين قصَّ علينا القرآن قصة عاد وعتوها عن أمر ربها ، وفي « عاد » هذه نجد العبارة اكتتفت القصة بدءاً ونهاية ، قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذْرِي ﴾ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَعْمِرٍ ﴾ ﴿ تَنَزَّعُ النَّاسُ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ خَلْجٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذْرِي ﴾ ؟ (القمر: ١٨-٢١) .

وتكرار العبارة - هكذا - في البداية والنهاية منخرج لها مخرج الاهتمام ، مع ملاحظة أن أحداث القصة - هنا - صُوِّرت في عبارات قصيرة ولكنها محكمة وافية .. ولم يسلك هذا المسلك في قصة نوح - أعني قصر العبارات - والسبب - فيما يبدو لي - أن إهلاك قوم نوح كان بالإغراق في الماء ، وهي وسيلة كثيراً ما تكون سبب هلاك ، فقد كانت سبب هلاك فرعون وملئه .. أما أن يكون الإهلاك بالريح فذلك أمر يدعو إلى التأمل والفكر .

ولعل مما يقوى رأينا هذا ، أن هذه القصة - قصة عاد - وردت في موضع آخر من القرآن يتفق مع هذا الموضع من حيث الفكرة ، ويختلف معه - قليلاً - من حيث طريقة العرض وزيادة التفصيل .

جاء في الحاقة : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ حَاطِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ؟ (الحاقة: ٦-٨).

فإرسال الريح - هكذا - سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً مدعاة للعتة والاعتبار .

ومثله : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿١١﴾ مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿١٢﴾ (الذاريات: ٤١، ٤٢) .

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٠﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١﴾ (فصلت: ١٥، ١٦) .

فقد بطرت «عاد» نعم ربها عليها ، وغرّها ما هي فيه من أسباب التمكين في الأرض وقوة البطش أن تبارز ربها ومولى نعمها بالمعاصي ، فأهلكها الله بما لا قبيل لها به ، وفي كل موضع يذكر القرآن فيه قصة هؤلاء تأتي عباراته قوية هادرة واعظة زاجرة ..

جاء في موضع آخر : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿١٠﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿١١﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿١٢﴾ (الفجر: ٦-٨) .

وكانت عاقبتها خسرا وهلاكاً مع من طغى في الأرض بغير الحق : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿٤﴾ (الفجر: ١٣، ١٤) .

أما الموضع الأخير الذي ذُكرت فيه هذه العبارة : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١﴾ فحين قصّر الله علينا قصة «ثمود» ، وقد جاءت فيها كذلك مهينة لتلقي صورة العقاب بعد التشويق إليها عند السامع ، ولفت نظره إليها : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ ﴿٣﴾ (القمر: ٣٠، ٣١) .

ومن هنا ندرك شدة اقتضاء المقام لهذا التكرار ، فليست إحدى العبارات في موضع بمغنية عن أختها في الموضع الآخر ، إنما هو اتساق عجيب تطلبه المقام من الناحيتين : الدينية والأدبية .

من الناحية الدينية حيث تحمل المؤمنين على التذكر والاعتبار عقب كل قصة من هذه القصص ، ومن الناحية الأدبية لأن العبارة : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَتُذْرٍ ﴾ تأتي عقب كل قصة - أيضاً - لافتة أنظار المشاهدين إلى « كنه » النهاية وختام أحداث القصة .

وقد مهد القرآن لهذا التكرار حيث لم يأت إلا بعد خمس عشرة آية تنتهي كلها بفاصلة واحدة تتحد نهاياتها بحرف « الراء » مع التزام تحريك ما قبلها ، وذلك هو نهج فواصل السورة كلها ، وقد أشاع هذا النسق الشاجي نوعاً من الموسيقى الصاخبة العنيفة التي تتلاءم مع جو الإنذار أيما تناسب ، والسورة فوق كل هذا مكية النزول والموضوع .

كما أن الطابع القصصي هو السائد في هذه السورة ، فبعد أن صورَّ القرآن الكريم موقف أهل مكة من الدعوة الجديدة ، وبين ضلال مسلكهم ، وقد كان الرسول عليه السلام حريصاً على هدايتهم في وقت هم فيه أشد ما يكونون إعراضاً عنه ، لهذا اقتضى الموقف العام سوق عبّر الماضين - ليكون في ذلك تسلياً للرسول عليه السلام ومن اتبعه وزجر لمن عارضه وصدَّ عنه .

وما دام هذا هو طابع السورة فإن أسس التربية - خاصة تربية الأمم - تستدعى تأكيد الحقائق بكل وسيلة ومنها التكرار الذي لمسناه في سورتنا هذه ، حتى لكأنه أصيل فيها وليس بمكرر .

### ● تكرر آخر في « القمر » :

وفي هذه السورة « القمر » مظهر آخر من مظاهر التكرار ، هو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ ؟ (القمر: ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠) حيث ورد في السورة أربع مرات ، وهذه دعوة صالحة للتأمل فيما يسوقه الله من قصص .

وقد اشتملت هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ على خبر واستفهام ، والخبر تمهيد للاستفهام الذي فيها وإغراء عليه .

### ● التكرار في « الرحمن » :

أما التكرار الوارد في « الرحمن » في قوله تعالى : ﴿ قَبَائِلَ ۙ ٱلْآءِ رَبِّكُمْ ۙ تَكْذِبَانَ ﴾ حيث ذكر فيها إحدى وثلاثين مرة فله أسبابه كذلك ، ويمكن أن نسجل هذه الملاحظات .

أولاً : أن هذا التكرار الوارد في سورة « الرحمن » هو أكثر صور التكرار الوارد في القرآن على الإطلاق .

ثانياً : أنه - أي التكرار في هذا الموضع - قد مهّد له تمهيداً رائعاً ، حيث جاء بعد اثنتي عشرة آية متحدة الفواصل ، وقد تكررت في هذا التمهيد كلمة « الميزان » ثلاث مرات متتابعة دونما نبو أو ملل :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ٱلَّذِى تَطْغَوْنَ فِي ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَٱقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن: ٧-٩).

وهذا التمهيد قد أشاع - كذلك - لحنًا موسيقيًا عذبًا كان بمثابة مقدمة طبيعية لتلاؤم صور التكرار ولتألفها النفس وتأنس بها فلا تهجم عليها هجومًا لأن القرآن قد راعى في فواصل المقدمة التمهيدية ما أنبت عليه فواصل الآية المكررة .

ثالثاً : أن الطابع الغالب على هذه السورة هو طابع تعداد النعم على الثقلين : الإنسان والجن ، وبعد كل نعمة أو نعم يعددها الله تأتي هذه العبارة : ﴿ قَبَائِلَ ۙ ٱلْآءِ رَبِّكُمْ ۙ تَكْذِبَانَ ﴾ .

وعلى هذا الأساس يمكن ييسر فهم علة التكرار الذي حفلت به سورة الرحمن أنه تذكير وتقرير لنعمه ، وأنها من الظهور بمكان فلا يمكن إنكارها أو التكذيب بها .

« فتكرار الفاصلة في الرحمن .. يفيد تعدد النعم والفصل بين كل نعمة وأخرى لأن الله سبحانه عدّد في السورة نعماءه وذكر عباده بالآث ، ونبههم على قدرها وقدرته عليها ولطفه فيها ، وجعلها فاصلة بين كل نعمة لتعرف موضع ما أسداه إليهم منها ، ثم فيها إلى ذلك معنى - التبيكيت والتقريع والتوبيخ - لأن تعدد النعم والآلاء من الرحمن تبيكيت لمن أنكرها كما يبكت منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها<sup>(١)</sup> .

ولقائل أن يسأل : إن هذه الفاصلة قد تكررت بعد ما هو ليس بنعمة من وعيد وتهديد ، فكيف يستقيم توجيهه إذن بعد هذه الآيات :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٣٦﴾ فَبِأَيِّ آءِ آءٍ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴾ (الرحمن: ٣٥، ٣٦) .

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آءِ آءٍ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴾ (الرحمن: ٤١، ٤٢) .

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بِنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَ إِن فَبِأَيِّ آءِ آءٍ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴾ (الرحمن: ٤٣-٤٥) .

وظاهر هذه الآيات بلاء وانتقام وليس بنعم .

والجواب : ولكن المتأمل يدرك أن في الإنذار والوعيد وبيان مآل الضالين عصمة للإنسان من الوقوع فيما وقعوا فيه فيكون مصيره مصيرهم .

ومن هذا الاعتبار يتبين أن هذه المواضع مندرجة تحت النعم ، لأن النعمة نوعان : إيصال الخير ، ثم دافع الشر ، والسورة اشتملت على كلا النوعين ، فلذلك كررت الفاصلة .

(١) خزنة الأدب للحموي : ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

## ● التكرار في «المرسلات» :

بقي التكرار الوارد في سورة المرسلات ، وقد صنَعَ فيه ما صنَعَ في نظيره في «القمر» و«الرحمن» من التقديم له بتمهيد .. وله - مثلهما - هدف عام اقتضاه .

يَبْدُ أن التمهيد يختلف عما سبق في «القمر» و«الرحمن» ، فقد رأينا فيهما اتحاد الفاصلة في الحروف الأخيرة مع التزام نهج معين فيما قبله ، أما هنا فإن الأمر يختلف .

فقد اشتمل التمهيد على مجموعتين من الآيات أولاهما لها فاصلة تختلف عن ثانيتهما وهي : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَأَلْعِصْفَقِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّشِيرَاتِ دَشْرًا ﴿٣﴾ فَأَلْفَرِقَاتِ فَرَقًا ﴿٤﴾ فَأَلْمَلِكِينَ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُدْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ (المرسلات: ١-٦) .

وختمت هذه المجموعة بقفلة هي سر الجمال كله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ (المرسلات: ٧) .

ما قبلها مُقَسَّم به ، وهي جواب القَسَم ، والمُقَسَّم به متعدد كأجزاء الشرط إذا بدئت بها السور ، وهي - كما تقدم - خصائص تعبيرية أسرة .

وبجواب القَسَم تنتهي هذه المجموعة - ثم تبدأ المجموعة الثانية وهي :

﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ (المرسلات: ٨-١٥) .

وهذه المجموعة تتكون من :

أولاً : شرط يتكرر أربع مرات محذوف الجواب ، وكله حديث عن أهوال القيامة ومقدمات البعث .

ثانياً : استفهام يعتبر مدخلاً لحقيقة هامة تقودنا إلى الهدف المنشود ، وهو التوصل إلى مصير المكذِّبين يوم الدين .

ثالثًا : جواب هذا الاستفهام الذي اشتمل على كلمة : « يوم الفصل » وكانت هذه الكلمة الشعاع الذي قادنا إلى الساحة الكبرى : ساحة القضاء العادل والقصاص الحكيم :

﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرُكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿٣﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤﴾ .

فانظر إلى هذا التمهيد الحكيم الذي مهد القرآن به لهذه العبارة ، حتى لكأنها هذه المقصودة .

ثم تكررت هذه الآية : ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ عشر مرات بعد هذه المرة وهي في كل مواضعها تتلو مشهداً من مشاهد القيامة ، وصورة من صور الحشر ، أو مشاهد القدرة الإلهية .

#### ● سبب عام :

أما السبب العام الذي اقتضى هذا التكرار فإن الآية أعقبت ما من شأنه أن يكون أكبر داع من دواعي الإيمان والتصديق ، بحيث يكون الخارج عن هذا السلوك والمكذب به صائراً - لا محالة - إلى الويل ، والعذاب الأليم .  
فويل للمكذبين بيوم الفصل ، وويل للمكذبين بهلاك المجرمين .. وويل للمكذبين بقدرة الله وتقديره أرزاق الخلق ، وعلى هذا المنهج يمضي التكرار في السورة كلها .

#### ● التكرار في القصة :

أما تكرار القصة في القرآن فذلك سمته الغالبة على معظم قصصه ، إذ لم يأت فيه غير مكرر إلا القليل مثل قصة يوسف عليه السلام ، وللعلماء توجيه في سردها مرة واحدة دون تكرار ، أهم ما في هذا التوجيه أن حرص الإسلام على صيانة الأعراض كان سبباً في ذلك لأن في قصة يوسف محاولة إغراء على جريمة خُلُقِيَّة ، لذلك فرغ القرآن من سوقها للعتة والاعتبار مرة واحدة .

والقصص القرآني في جملة مسوق لغرضين أساسيين :

أولاً : تسلية الرسول عليه السلام وتثبيت فؤاده ، وأنه لم يكن بدعاً من الرسل خولفوا مثل مخالفته ، وحق على المخالفين العذاب ، ونصر الله رسله وجنده .

ثانياً : تهديد وزجر المخالفين ، وبيان لمصير أمثالهم ، علهم يرتدعون ويقلعون عن غيهم .

ودواعي هذين الغرضين متكررة مرات ومرات ، فالرسول - عليه السلام - لم يكف عن الدعوة إلى الإسلام ، والكفار لم يكفوا عن الإعراض والمخالفة ، فإذا اعتبرنا أن مجموع هذين الأمرين هما الحال المقتضية لإيراد القصة في القرآن ، فإن تكرارهما يستدعي تكرار مقتضى الحال ، وهو تكرار القصص مقدراً في كل قصة على عدة مناسبات دقيقة لمقام الحديث .

فتكرار القصة القرآنية في أكثر من موضع ظاهرة فنية ودعامة تربوية ، كان لا بد أن تكون .

ومع هذا المقتضى فإن تكرار القصة في القرآن لم يكن على نمط واحد ، أعني أن هناك فروقاً بين مواضع تكرارها ، ولم تكرر فيه قصة واحدة على وجه واحد في الصياغة أو الفكرة - أو فيهما معاً .

فهناك اختلاف في الصياغة ، وهناك اختلاف في الطول والقصر ، واختلاف في الأحداث التي تتناولها ، وطريقة عرض تلك الأحداث .

وهي بهذا - جديدة متجددة دائماً - لا مدعاة للسآمة والملل - كما يزعم المغرضون - بل فيها روح وطرافة .

كذلك فإن المعاني التي تتحدث عنها القصة القرآنية لم تكن لمجرد التهديد أو التسلية .

ولكنها حقائق يُراد إثباتها لتؤدي دورها في كل عصر ، متى توافرت دواعيها .

والتكرار كما يقول جوستاف لوبون : « يُحوّل المكرر إلى معتقد »<sup>(١)</sup> .  
ولذلك كان التكرار وسيلة من أهم وسائل التربية والتثقيف .

### ● دواعي التكرار في القصة :

يقول صاحب « البرهان » موجهاً لتكرار القصة في القرآن : « إن عادة العرب في خطابتها إذا اهتمت بشيء - أرادت تحقيقه وقرب وقوعه أو قصدت الدعاء إليه ، كررته توكيداً وكأنها تقيم تكراره مقام المُقَسِّم عليه أو الاجتهاد في الدعاء بحيث تقصد الدعاء ، والقرآن نزل بلسانهم فكانت مخاطباته فيما بين بعضهم وبعض ، وبهذا المسلك تستحكم الحُجَّة عليهم في عجزهم عن المعارضة »<sup>(٢)</sup> .

ويمضي الزركشي بعد هذا موضحاً لظاهرة التكرار في القرآن ، ويسوق أدلة من القرآن نفسه لبيان صحة ما يقول هو عنه ، يبيّن أنه لم يأت بمثال واحد يحلل فيه التكرار في الأسلوب القرآني وإن لم يفته أهم غرض فيه وهو إفادته التقرير والتوكيد قال : « وفائدته العظمى التقرير وقد قيل : إن الكلام إذا تكرر تقرر »<sup>(٣)</sup> .

وهناك شيء هام غفل عنه الزركشي ، إذ لا يكفي أن يكون مجرد التوافق في أسلوب القرآن وأسلوب العرب من حيث إن في كل منهما تكراراً ، لا يكفي أن يكون هذا سبباً في الحكم على التكرار بالجوادة ، فنحن لسنا في موضع يُراد فيه إثبات مشروعية التكرار ، وإنما في موضع يبحث عن مزايا وخصائص التعبير القرآني ، ومنها التكرار .

ويرى الزمخشري رأياً يقرب من رأي الزركشي لكنه أعمق فهماً منه ، قال : « إن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس ، وتثبيتاً لها في الصدور ، ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يرام تحفظه منها ، وكلما زاد

(١) روح الاجتماع ، جوستاف لوبون ص ١٥٧ .

(٢،٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٩/٣ .

ترديده كان أمكن له في القلوب ، وأرسخ له في الفهم ، وأثبت للذكر ، وأبعد من النسيان»<sup>(١)</sup> .

وهنا لا بد أن نقرر حقيقة هامة ، هي : أن الإشادة بجمال التكرار في القرآن لم يقتصر على العلماء العرب ، بل إن كثيراً من المستشرقين قد شهدوا بذلك منهم « جرونيبادم » - كما نقل عنه عبد الكريم الخطيب في كتاب « الإعجاز القرآني » ( ج ١ ص ٣٨٥ ) - ومع هذا الحق الذي يشهد به الأصدقاء والأعداء فإننا نستطق القرآن نفسه ، وهو خير وأعدل ، ولناخذ لهذا كله - مثلاً - قصة آدم عليه السلام ، وقد كُرت في سبع سور سبع مرات .

### دراسة تحليلية لقصة آدم

#### ● نصوص القصة في القرآن الكريم :

١- البقرة من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٨ :

قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّي جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيفَةً ۗ قَالُوۡا اَتَجْعَلُ فِيهَا مَنۡ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ اِنِّىۡۤ اَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُوۡنَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْاَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلٰى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ اَنْبِئُوۡنِىۡ بِاَسْمَآءِ هٰٓؤُلَآءِۗ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيۡنَ ﴿٣١﴾ قَالُوۡا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَاۤ اِلَّا مَا عَلَّمْتَنَاۗ اِنَّكَ اَنْتَ الْعَلِيۡمُ الْحَكِيۡمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَقَدَّمُ اَنْبِئُهُمْ بِاَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا اَنْبَاَهُمْ بِاَسْمَائِهِمْ قَالَ اَلَمْ اَقُلْ لَّكُمْ اِنِّىۡۤ اَعْلَمُ غَيْۢبَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاَعْلَمُ مَا تُبْدُوۡنَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُوۡنَ ﴿٣٣﴾ وَاِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوۡا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوۡا اِلَّاۤ اِبۡلِيسَ اَبٰى وَاَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيۡنَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَتَقَدَّمُ اَسْكُنْ اَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُوۡنَا مِنَ الظّٰلِمِيۡنَ ﴿٣٥﴾ فَاَزَلَهُمَا الشَّيْطٰنُ عَنْهَا فَاَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيۡهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوۡا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الْاَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ اِلٰى حِيۡنٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقٰى

(١) تفسيرالكشاف للزمخشري : ٣/٣٨٥ (بتصرف) .

ءَادَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۗ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٨﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٩﴾ (البقرة: ٣٠-٣٨) .

٢- الأعراف من الآية ١١ إلى الآية ٢٥ :

قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ۗ اِلَّا اِبٰلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّٰجِدِيْنَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ اَلَّا تَسْجُدَ اِذْ اَمَرْتُكَ ۗ قَالَ اَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِيْ مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِيْنٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُوْنُ لَكَ اَنْ تَتَّكِبَ فِيْهَا فَاُخْرِجْ اِيْكَ مِنَ الصُّفْرِیْنَ ﴿١٣﴾ قَالَ اَنْظِرْنِيْ اِلٰى يَوْمٍ يُبْعَثُوْنَ ﴿١٤﴾ قَالَ اِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِيْنَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَاِمْا اَغْوَيْتَنِيْ لَاقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيْمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ اَيْدِيْهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ اَيْمٰنِهِمْ وَعَنْ شَمٰٓئِلِهِمْ وَلَا يَجِدُوْا اَكْثَرَهُمْ شٰكِرِيْنَ ﴿١٧﴾ قَالَ اَخْرِجْ مِنْهَا مَذٰهُمًا مَّدْحُوْرًا ۗ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَآمِلٰنٌ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ اَجْمَعِيْنَ ﴿١٨﴾ وَتَنَادٰمُ اسْكُنْ اَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُوْنَا مِنَ الظَّٰلِمِيْنَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءٍ لِّهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةَ اِلَّا اَنْ تَكُوْنَا مَلَكَيْنِ اَوْ تَكُوْنَا مِنَ الْخٰلِدِيْنَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا اِنِّيْ لَكُمَا لَمِنَ النَّٰصِحِيْنَ ﴿٢١﴾ فَدَلٰهُمَا بِغُرُوْبٍ ۗ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءٌ لِّهِمَا وَطَفِقَا مَخْصِفٰنِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَّرَقِ الْجَنَّةِ وَتَنَادٰهُمَا رَبُّهُمَا اَلَمْ اَنْهٰكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَاَقُلْ لَكُمَا اِنَّ الشَّيْطٰنَ لَكُمْ اَعْدُوٌّ مُّبِيْنٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا اَنْفُسَنَا وَاِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوْا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْاَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ۗ وَمَتَّعْ اِلٰى حِيْنٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيْهَا تَحٰوَنَ وَفِيْهَا تَمُوْتُوْنَ وَمِنْهَا تَخْرٰجُوْنَ ۗ

(الأعراف: ١١-٢٥) .

٣- الحجر من الآية ٢٦ إلى الآية ٤٤ :

قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾  
وَالْجَانَّ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ  
بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي  
فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ  
يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾  
قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ  
مِثًا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى  
يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ  
رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ  
مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ  
عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾  
لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿الحجر: ٢٦-٤٤﴾ .

٤- الإسراء من الآية ٦١ إلى الآية ٦٥ :

قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَأِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ  
ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ  
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ  
فَأَبْ جَهَنَّمَ جَزَأُكُمْ جَزَاءً مُوقُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْرَزَ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ  
وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْهُمْ  
وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ  
وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿الإسراء: ٦١-٦٥﴾ .

٥- الكهف الآية الخمسون :

قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَأِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ  
الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ  
بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿الكهف: ٥٠﴾ .

قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾  
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَتَقَدَّمُ  
إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا  
تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ  
الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَقَدَّمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنهَا  
فَبَدَّتْ لهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ  
فَعَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا  
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا بَأْتَيْنَكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ  
وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَمَخْشَرُهُ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ  
كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ مِنَ  
السَّرْفِ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿ طه : ١١٥-١٢٧ ) .

٧- سورة « ص » من الآية ٧١ إلى الآية ٨٥ :

قال سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا  
سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ  
كُلُّهُمْ أَسْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَتَّبِعُ  
مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ  
أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ  
﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾  
قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ  
لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ  
أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ ص : ٧١-٨٥ ) .

ونسجل أولاً حقيقة هامة ، وهي ترتيب السور التي وردت فيها نصوص القصة حسب نزولها وهي :

أولاً - في مكة : سورة ص - الأعراف - طه - الإسراء - الحجّـر - الكهف .  
ثانياً - في المدينة : البقرة<sup>(١)</sup> :

ومن هذا نعلم : أن أول سورة تتحدث عن قصة آدم عليه السلام ، هي سورة «ص» ، وأنها مكية النزول ، وأن نصيب العهد المكي من قصة آدم عليه السلام كان وفيراً ، حيث وردت في ست سور ، بدأت بسورة «ص» ، واختتمت بـ«الكهف» ، وأن الكهف كانت خاتمة المطاف بالنسبة للعهد المكي .

أما العهد المدني فلم ترد فيه القصة إلا في سورة واحدة ، هي سورة البقرة ، وأن سورة البقرة هذه أول ما نزل بالمدينة بعد الهجرة الشريفة .  
ولهذا فإننا سنحلل عناصر هذه القصة في كل موضع وردت فيه ، حسب هذا الترتيب النزولي .

### ● عناصر القصة في سورة «ص» :

- ١- إخبار الله الملائكة بخلقه بشراً من طين .
- ٢- أمر الله الملائكة بالسجود لهذا البشر ، إذا سواه ونفخ فيه من روحه ، ثم امتثال الملائكة هذا الأمر .
- ٣- إخبار الله تعالى بمخالفة إبليس وإيائه السجود وصيورته من الكافرين .
- ٤- سؤال الله - وهو أعلم - إبليس عن سبب مخالفته وامتناعه عن السجود .
- ٥- اعتذار إبليس عن مخالفته أمر ربه بالسجود لآدم ، وحُجَّتِه التي استند عليها .
- ٦- طرد الله إبليس من الجنة وإحراق لعنته عليه إلى يوم الدين .
- ٧- طلب إبليس من ربه أن ينظره إلى يوم البعث .
- ٨- استجابة الله له ، وجعله من المنظرين .

(١) اعتملنا في هذا الترتيب حسب ما ذكره الزركشي في البرهان : ١٩٣/١ ، ١٩٤ .

٩- عناد إبليس وإعلانه - مقسمًا - أن يغوى الناس أجمعين ، إلا عباد الله المخلصين .

١٠- توعده الله إبليس ليملأ جهنم منه ومن أتباعه .

### ● عناصر القصة في «الأعراف» :

١- الإخبار بأمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم ، وامثالهم هذا الأمر .

٢- مخالفة إبليس .

٣- سؤال الله - وهو أعلم - إبليس عن مخالفته .

٤- اعتذار إبليس من مخالفته أمر ربه ، وحثه التي استند عليها .

٥- أمر الله إبليس بالهبوط من الجنة منكرًا عليه أن يتكبر فيها ، وتكرار الأمر بالخروج وذمه .

٦- طلب إبليس من الله أن ينظره إلى يوم البعث .

٧- استجابة الله له .

٨- عناد إبليس وإعلانه الترصده للناس لإغوائهم وإيتاؤه إياهم من كل مدخل ينزلون فيه .

٩- تكرار الأمر له بالخروج مع ذمه وتوعده بأن يملأ الله جهنم منه ومن كل من يتبعه .

١٠- أمر الله آدم أن يسكن الجنة هو وزوجه ويتمتعاً بكل نعيم فيها إلا شجرة واحدة عينها لهما ، وحرمتها عليهما ، فإن أكلها صارا ظالمين .

١١- وسوسة الشيطان لهما ، وغرضه منها ، وأسلوب خداعه لهما .

١٢- ذوقهما الشجرة المحرمة ، وظهور سوءاتهما ، ومحاولتهما سترها بورق الجنة .

١٣- نداء الله وتذكيره لهما بنصائحه .

١٤- ندمهما على ما فعلا ، واستغفارهما الله .

١٥- أمر الله لهم بالهبوط إلى الأرض مع تحقيق العداوة بينهم ، واستقرارهم في الأرض .. والاستمتاع بها إلى حين معلوم .

١٦- إخبار الله لهم بما سيكون عليه حالهم في الأرض : حياة ، وموت ، فبعث .

### ● عناصر القصة في « طه » :

١- مدخل القصة .

٢- إخبار الله بأمره الملائكة بالسجود لآدم ، وامثالهم الأمر .

٣- مخالفة إبليس أمر ربه .

٤- نصح الله لآدم وتحذيره له من الشيطان .

٥- بيان النعم التي سُنِعَ بها آدم وزوجه في الجنة .

٦- وسوسة الشيطان له ، وأسلوب خداعه .

٧- أكلهما من الشجرة المحرمة ، وظهور سوءاتهما ، ومحاولتهما سترها بورق الجنة .

٨- حكم الله على مسلك آدم حيث خالف هو وزوجه أمر الله وأطاعا إغراء الشيطان لهما .

٩- اجتباء الله آدم ، وتوبته عليه ، وهدايته له .

١٠- أمر الله لهم بالهبوط وترقب هُداة ، فَمَنْ اتَّبَعَ هُداة فهو في هدى وسعادة ،

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ هدى الله شقى في الدنيا ، وساء مصيره في الآخرة .

### ● عناصر القصة في « الإسراء » :

١- إخبار الله بأمره الملائكة بالسجود لآدم ، وامثالهم الأمر .

٢- مقولة إبليس ومحاجته ربه ، مبرراً لماذا لم يسجد لآدم ؟

٣- عناده وإعلانه لو أُخِّرَ إلى يوم القيامة لِيُضِلَّنْ ذُرِّيَّةَ مَنْ كَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ - يقصد آدم - إلا قليلاً منهم .

- ٤- إمداد الله لإبليس في الغواية والإغواء متوعداً له وللمن تبعه بإدخالهم النار .  
 ٥- بيان أن وعد الشيطان أوليائه ما هو إلا غرور .  
 ٦- عصمة الله عباده - الأحقاء - من غواية إبليس - وسلبه كل سلطان عليهم ،  
 فهم في مأمن منه .

### ● عناصر القصة في « الحِجْر » :

- ١- مدخل القصة .  
 ٢- إخبار الله الملائكة أنه خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون .  
 ٣- أمره الملائكة بالسجود له إذا سؤاه ، وامتثالهم هذا الأمر .  
 ٤- مخالفة إبليس أمر ربه .  
 ٥- سؤال الله - وهو أعلم - إبليس عن سبب مخالفته أمره بالسجود لآدم عليه السلام .  
 ٦- اعتذار إبليس وحجته .  
 ٧- أمر الله إبليس بالخروج من الجنة وإحلال لعنة الله على إبليس .  
 ٨- طلب إبليس من الله أن يجعله من المنظرين إلى يوم البعث .  
 ٩- استجابة الله له .  
 ١٠- عناد إبليس وإعلانه تزيين المعاصي وإغواء الناس إلا المخلصين من عبادة الله .  
 ١١- إعلام الله إبليس بحصانة عباده المخلصين من إغوائه .  
 ١٢- أن جهنم مصير مَنْ يتبع إبليس ، وأن الله أعد لهم سبعة أبواب يدخلون منها النار لكل باب منها فريق مقسوم .

### ● عناصر القصة في « الكهف » :

- ١- إخبار الله بأمره الملائكة بالسجود لآدم ، وامتثالهم هذا الأمر .  
 ٢- مخالفة إبليس .

- ٣- إنكار أن يتخذ الناس إبليس وذريته أولياء من دون الله ، وهو لهم عدو .
- ٤- مَنْ يتخذ الشيطان ولياً من دون الله ، فبئس البديل بدله .
- وبسورة الكهف تنتهي مصادر القصة في العهد المكي ، وتبدأ مرحلة جديدة في العهد المدني تتمثل في سورة البقرة .
- عناصر القصة في سورة « البقرة » :
- ١- إخبار الله الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة .
- ٢- تعجب الملائكة من هذا الجعل ، وسبب لهذا التعجب .
- ٣- رد الله عليهم .
- ٤- تعليم الله آدم الأسماء كلها .
- ٥- عرضهم على الملائكة ، ومطالبتهم بالإنباء بأسمائهم على سبيل الاختبار المؤدي إلى العجز .
- ٦- تنزيه الملائكة الله ، وتفويضهم الأمر إليه .
- ٧- أمر الله آدم أن يخبرهم بالأسماء ، وامتنال آدم عليه السلام هذا الأمر .
- ٨- استنثار الله بغيب السموات والأرض ، وعلمه بظواهر الأمور وبواطنها .
- ٩- أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم وامتثالهم هذا الأمر .
- ١٠- مخالفة إبليس واستكباره وصورته من الكافرين .
- ١١- أمر الله آدم أن يسكن هو وزوجه الجنة وأن يتمتع بما فيها من أنعام .
- ١٢- تحريم الله عليهما قربان شجرة فيها عينها لهما ، فإن قرباها صارا ظالمين .
- ١٣- إغواء الشيطان لهما ، وأكلهما من الشجرة المحرمة ، وإخراجه لهما مما كانا فيه .
- ١٤- أمر الله لهم بالهبوط من الجنة إلى الأرض مع تحقق العداوة بينهم واستقرارهم في الأرض واستمتاعهم فيها إلى حين .

١٥- تلقي آدم كلمات من ربه ، وتوبة الله عليه .

١٦- تكرار الأمر بالهبوط وترقب هدى الله فَمَنْ اتَّبَعَ هَدَى اللَّهِ فَسَلَماً ، وَمَنْ عَصَاهُ أَدْخَلَهُ النَّارَ وَأَخْلَدَهُ فِيهَا .

وبعد هذا التحليل لعناصر القصة في مصادرها الأصلية ننظر فيها على الوجه الآتي :

أولاً : المعاني المشتركة في جميع المصادر ، مع التعرض لفروق الصياغة ما أمكن .

ثانياً : المعاني المشتركة في مجموعة دون أخرى ، مع التعرض لفروق الصياغة كذلك .

ثالثاً : المعاني التي لم تتكرر قط .

#### ١- المعاني المشتركة في جميع المصادر :

المتأمل في نصوص القصة في جميع مصادرها يدرك أن المعاني التي لم يخل نص منها - بل هي مشتركة بينها كلها - هي المعاني الآتية :

(١) أمر الله الملائكة بالسجود لآدم .

(٢) امتثال الملائكة هذا الأمر .

(٣) مخالفة إبليس أمر ربه .

وفي « البقرة » جاء قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٣٤).

وفي « الأعراف » جاء قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾

(الأعراف: ١١) .

وفي « الحجر » جاء قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّن حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿١٥﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ

سَجِدِينَ ﴿٢٨﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ  
السَّاجِدِينَ ﴿ (الحجر: ٢٨-٣١).

وفي «الإسراء» جاء قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا  
إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (الإسراء: ٦١) .

وفي «الكهف» جاء قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا  
إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ (الكهف: ٥٠).

وفي «طه» جاء قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا  
إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ (طه: ١١٦) .

وفي سورة «ص» جاء قوله : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ  
﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ  
الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾  
(ص: ٧١-٧٤) .

فهذه المعاني الثلاثة وردت - كما ترى - في جميع المصادر لأنها العناصر  
الكبرى التي تدور حولها أحداث القصة .

ونلاحظ من النظر في النصوص أن سجود الملائكة قد عطف في جميع  
المواضع على القول لهم بالسجود ، قد عطف بالفاء ، وهذا يفيد سرعة امتثال  
الملائكة لأمر ربهم وأنهم لم يترددوا قيد أنملة .

أما مخالفة إبليس فقد صورت بصياغة مختلفة ففي «البقرة» : ﴿ لَأَبَى  
وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٣٤) .

وفي «الأعراف» : ﴿ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (الأعراف: ١١) .

وفي «الحجر» : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ (الحجر: ٣١) .

وفي «الإسراء» : ﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (الإسراء: ٦١) .

وفي «الكهف» : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾  
(الكهف: ٥٠) .

وفي « طه » : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أُنِيَ ﴾ (طه: ١١٦).

وفي سورة « ص » : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (ص: ٧٤).

والتفنن في العبارة قد أفاد إسناد أقبح أوصاف الذم للعين إبليس .

كما نجد فروقاً - كذلك - في التمهيد : ففي « البقرة » لم يتقدم عليها تمهيد ، أما في « الأعراف » فقد كان التمهيد صدر آية : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ ، ثم قال : ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكِئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ (الأعراف: ١١). والعطف بـ « ثم » المفيدة للترتيب مع التراخي يدل على أن في التعبير تجوزاً ، إذ ليس المخلوق والمصور هم المخاطبين بل آدم عليه السلام ليصح الترتيب ، والمعنى : « خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصوراً ثم صورناه بعد ذلك » .

والمجاز فيه مرسل والعلاقة المصححة هي المسيبية ، إذ وجود المخاطبين مسبب على وجود المراد بالحديث وهو آدم .

كذلك مهد لها في « الحجر » بالحديث عن خلق الجن والإنسان : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُورِ ﴾ (الحجر: ٢٦، ٢٧) ثم قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ (الحجر: ٢٨).

أما « الإسراء » فلم يأت فيها تمهيد مثل « البقرة » ، وكذلك « الكهف » .

و« طه » تقدمت القصة فيها تمهيد هو في الواقع إجمال بديع للقصة كلها ، ومدخل لسرد أحداثها بالغ الجودة : ﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسَى وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ (طه: ١١٥) كان هذا هو مدخل القصة في « طه » ، كما سردت بعده أحداثها سرداً محكمًا .

وكذلك خلت سورة « ص » من التمهيد المباشر للقصة ، وبذلك تكون القصة قد مهد لها في ثلاثة مواضع هي : الأعراف - الحجر - طه .

ولم يمهد لها تمهيداً مباشراً في أربعة مواضع هي: البقرة - الإسراء - الكهف - سورة «ص» .

وكذلك نجد فروقاً في الأمر بالسجود ، فتارة يكون بصريح الأمر من الفعل «سجد» نفسه وذلك في خمسة مواضع هي : البقرة - الأعراف - الإسراء - طه - الكهف .

أما في الحجر وسورة «ص» فلم يأت بالأمر الصريح من الفعل ، بل تقدم عليه «أمر» من فعل آخر «وقع» وجعل السجود حالاً ، من فاعل ذلك الفعل الذين هم الملائكة ، ومن دقة النظم أن هذه العبارات جاءت في السورتين في سياق حديث واحد: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٩) ، (ص: ٧٢) .

ولعل السر في هذا التصرف - ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ بدلاً من : ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ - أن التفصيل في هاتين السورتين في هذا الموضوع بالذات حيث قال : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ بعد قوله في الحجر : ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وبعد قوله في سورة «ص» : ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ أن هذا التفصيل فيه شرح أكثر لبيان قدرة الله سبحانه وذلك أمر أدعى إلى تعظيم الله القادر ، والانكباب من عل على الجباه تقديراً له حق قدره ، وذلك لأن : ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ في معنى الانكباب الفوري وهو معنى زائد على مجرد الأمر الوارد في المواضع الأخرى : ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ .

ويلاحظ - كذلك - أن إحدى هاتين العبارتين جاءت في سورة «ص» ، وسورة «ص» هذه هي أول سورة تحدثت عن القصة ، وهي مكية ، فإن سورة الحجر مكية كذلك ، والقوم في مكة شديداً العناد للإسلام ، فناسب حالتهم هذه التفصيل في القول والاتجاه به نحو القوة ، وذلك ما تكفلت به السورتان : سورة «ص» والحجر .

## ● ملاحظة جديدة بالتسجيل :

هذه خلاصة وجيزة لما اشترك من عناصر القصة في جميع المصادر ، ونرى أن نذكر ملاحظة جديدة بالتسجيل هي أن الإشارة جاءت عابرة عن قصة آدم في سورة الكهف ، وهي إن اشتملت على العناصر الثلاثة التي لم يخل منها مصدر من مصادر القصة ، فإن جانب القصص غير ظاهر فيها .

وإنما جيء بها تمهيداً لإنكار أن يتخذ الناس إبليس وذريته أولياء من دون الله .. والعهد المكي لم يكن في حاجة إلى تفصيل بعد أن تحدثت عنها خمس سور مكية في تفصيل ووضوح .

لذلك جاءت آية « الكهف » لمحة عابرة إلى حديث طويل معلوم وذائع أمره ، كما أن هذه السورة على وجازة ما جاء في آيتها من حديث القصة فإنها اشتملت على جديد لم يُصرَّح به في غيرها .

وذلك الجديد هو : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ (الكهف: ٥٠) فنسبته إلى الجن ، والحكم عليه بالفسق لم يرد إلا في آية « الكهف » ، وهذا يعطينا قيمة عظيمة هي أن القصة المتكررة في القرآن لم تخل من جديد وإن قصرت في موضع دون آخر .

### ٢- المعاني المشتركة بين مجموعة دون أخرى :

من المعاني المشتركة بين مجموعة دون أخرى : سؤال الله - سبحانه - إبليس عن عدم امتثاله لأمره وما ترتب على ذلك من أمور .

وقد ورد هذا السؤال في ثلاثة مصادر .

الأول : الأعراف ، قال سبحانه : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ ﴿١﴾ قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٢﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٤﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ

شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا  
لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ (الأعراف: ١٢-١٨).

الثاني : الحِجْر ، قال سبحانه : ﴿ قَالَ يَتْلُو تِلْكَ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونُ مَعَ  
السَّاجِدِينَ ﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ  
﴿١٨﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِمٌ ﴿١٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٠﴾  
قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٢﴾ إِلَى يَوْمِ  
الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ  
أَجْمَعِينَ ﴿٢٤﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ  
﴿٢٦﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٢٧﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ  
لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٨﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٢٩﴾

(الحجر: ٣٢-٤٤).

الثالث : سورة «ص» ، قال سبحانه : ﴿ قَالَ يَتْلُو تِلْكَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ  
لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ ﴿٧٦﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي  
مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٧﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِمٌ ﴿٧٨﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ  
لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٩﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٨٠﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ  
الْمُنْظَرِينَ ﴿٨١﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨٢﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٣﴾  
إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٥﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ  
مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٦﴾ (ص: ٧٥-٨٥).

والباحث يرى أن السؤال قد اختلف في صياغته من موضع إلى آخر ، وأنه  
قد ترتب عليه أمور :

١- اعتذار إبليس وُحجته أنه مخلوق من نار ، و آدم من طين مع اختلاف في  
الصياغة .

٢- ردُّ عليه من الله رافض لعذره وأمر له بالخروج أو الهبوط من الجنة ، منكر عليه أن يتكبر فيها ، موجب عليه اللعنة مع الاختلاف في طرق تعريف اللعنة . مرة بـ « ال » ، وأخرى بالإضافة إلى الله .

٣- طلب إبليس أن ينظره ربه إلى يوم البعث ، واستجابة الله له .

٤- إعلان إبليس - مقسمًا مرة ، ومعللاً أخرى - ليغوين الناس إلا مَنْ يعصمه الله .

٥- إعلام الله إبليس بحصانة عباده المخلصين ، وتوعده لإبليس بأن يملأ منه جهنم وممن اتبعه أجمعين .

٦- إن في المواضع الثلاثة فروقًا دقيقة في الصياغة ، وفي تصوير المعاني ، سواء فيما قاله الله لإبليس أو فيما حكاه القرآن من مقولة اللعين .

٧- إن سورة الإسراء تشترك معها فيما ترتب على السؤال دون أن يرد فيها ذكر له لأن مقولة إبليس فيها نزلت منزلة إبانة السجود :

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَكِبُ ﴿٦٢﴾ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٣﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٤﴾ وَأَسْتَفْرَزُ مِنْهُم مَنِ اعْتَدَىٰ لَكَ وَالْأَوْلَادَ وَعَدَهُمْ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٥﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ (الإسراء: ٦١-٦٥) .

#### • ملاحظات :

ويرى الباحث - كذلك - أن هذه العناصر التي اشتركت فيها كل من الأعراف ، والحجر ، وسورة « ص » ، والإسراء ، كان مهدها مكة لأن هذه السور مكية النزول ، وحال القوم في مكة من الإعراض والصدود والجدل العقيم في محاربة الدعوة الجديدة تناسبه عناصر القصة المذكورة بما فيها من قوة وعنف في الرد على إبليس وتوعده بالعذاب هو ومن اتبعه ، كما أن رفض

الحُجَّةُ التي بنى عليها اللعين اعتذاره وإهدارها من الأساس شبيه برفض الإسلام لدعاوى وحجج المعاندين من مشركي مكة .

كما يرى الباحث أن اختلاف الصياغة من موضع إلى آخر أمر اقتضاه المقام ولم يكن مجرد اتفاق .  
ونضرب لذلك مثلاً :

قال إبليس في «الحِجْرِ» معتذراً عن مخالفته أمر ربه : ﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (الحجر: ٣٣) .. بينما نسب خلقه إلى الطين في كل من الأعراف والإسراء وسورة «ص» .

والطين سابق على الصلصال والحمأ المسنون ، قال الراغب : الصلصال تردد الصوت من الشيء الجاف ومنه قيل : صل المسمار ، وسمى الطين الجاف صلصالاً قال : ﴿ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ ، ﴿ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴾<sup>(١)</sup> .

فأوثر الصلصال في «الحِجْرِ» لتقدمه في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (الحجر: ٢٨) ولعل إيثار هذا أيضاً على أن يقول : «من طين» لأن مبدأ خلق الإنسان هنا قوبل بمبدأ خلق الجان ، ولما قال في خلق الجان : ﴿ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ ﴾ ناسب أن يكون المقابل له : ﴿ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴾ لأن الطين إذا قوبل بالنار جف وييس وسمع له صوت إذا حُرِّك .

ومما يؤيد هذا قوله في الرحمن : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۖ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ﴾ (الرحمن: ١٥، ١٤) . فآثر الصلصال في مقابلة المارج الذي من نار .

أما إيثار الطين في الأعراف والإسراء وسورة «ص» فحيث لم يقتض المقام سواه ولأنه أسبق وجوداً من الصلصال .

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني : ص ٢٨٤ .

هذا مثل أذكره للقياس وليبان أن كل اختلاف في الصياغة إنما هو لسبب وداع ، وليس لمجرد التعبير الخالي من الدقائق والأسرار .

ومن المعاني التي اشتركت فيها مجموعة دون أخرى : أمر الله آدم وحواء أن يسكنا الجنة بعد طرد إبليس منها .

وهذه مرحلة تالية في بناء القصة للمرحلة السابقة من مخالفة إبليس وعناده وما ترتب عليها .

فلننظر في مصادرها وصياغاتها :

### • سكنى الجنة :

جاء أمر الله لآدم عليه السلام أن يسكن الجنة هو وزوجه في ثلاث سور :

الأولى : « البقرة » ، قال سبحانه : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ٣٥) .

الثانية : « الأعراف » ، قال سبحانه : ﴿ وَيَقَادِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩) .

الثالثة : « طه » ، قال سبحانه : ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ ﴾ (طه: ١١٧-١١٩) <sup>(١)</sup> .

ولعل أول ما يلاحظه الباحث في هذه النصوص الثلاثة أن الأمر بالسكنى في الجنة جاء صريحاً في آيتي البقرة والأعراف ، وخولف ذلك في طه لأن ما فيها نصح وتحذير لآدم وزوجه من إغواء الشيطان لهما ، لأنه لهما عدو ، فجاء قوله

(١) الراجح في أفراد الخطاب هنا - كما أرى - هو أن آدم بما يحمل من مسئولية القوامة وتبدير أمر الأسرة يكون أول من يشعر بالشقاء .

تعالى : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ دليلاً على تمكنهما من الجنة ، حيث نهاهما الله أن يخرجهما منها الشيطان .

وفي طه - كذلك - تفصيل لمظاهر النعيم التي كانا يتمتعان بها في الجنة ، ويقابل هذا التفصيل في البقرة والأعراف الإذن لهما بأن يتمتعا بما شاءا حيث كانا فيها مع زيادة وصف الأكل بـ « الرغد » في البقرة .

كما يلاحظ الباحث أن آية البقرة قد صُدِّرت بقوله : ﴿ وَقُلْنَا يَتَّادُمُ ﴾ ، أما الأعراف فقد حُذِفَ منها القول وصُدِّرت بالنداء وحده : ﴿ يَتَّادُمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ ، كما صُدِّرت آية طه بالقول مسبقاً بالفاء دون الواو كما في البقرة : ﴿ فَقُلْنَا يَتَّادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ .

ولعل السر في ذلك أن القول في البقرة عطف على نظيره في صدر الآية السابقة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ .

أما في الأعراف فقد حُذِفَ القول ، وبُدِيَ في خطاب آدم بالنداء لأنه قد سبق عليه قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأعراف: ١٨) فلو قال بعده : « وقلنا .. » لتوهم متوهم أن « قال » في الآية السابقة ليست من قول الله لإسناده إلى ضمير الغائب وإسناد « قلنا » لضمير المتكلم ، وقد عرفنا حرص القرآن على إسناد القول إلى ضمير المتكلم في موضع الأمر بالسكنى لآدم وزوجه .

والأظهر هنا أن الواو للاستئناف في : ﴿ يَتَّادُمُ أَسْكُنُ ﴾ حتى تظهر المغايرة التامة بين مأمور بالخروج مذءومًا مدحورًا ، ومأمور بالتمكن معززًا مكرمًا .

أما العطف في طه بـ « الفاء » : ﴿ فَقُلْنَا يَتَّادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ فلما في « الفاء » من الترتيب والتعقيب ، وما تفيدته كذلك من معنى السببية ، إذ تقدَّم عليها امتناع إبليس عن السجود له .

فأبان العطف بـ « الفاء » ترتب نصح الله لآدم على امتناع إبليس عن السجود ، وأن ذلك حدث دونما فصل بين الامتناع والنصح - هذا من حيث

الترتيب والتعقيب - أما من حيث السببية فإن كون إبليس ممتنعاً عن السجود  
لآدم ، فذلك سبب في أنه عدوهما والحقود عليهما .

● وسوسة الشيطان لهما وما ترتب عليهما :

وهذه المرحلة من القصة قد اشتركت في الحديث عنها مجموعة من السور

هي :

«البقرة» قال سبحانه : ﴿ فَازْلَمْهُمَا الشَّيْطَانُ عَنَّا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ  
وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٠﴾  
فَتَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٢١﴾

(البقرة: ٢٠، ٢١) .

«الأعراف» قال سبحانه : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ  
عَنَّهُمَا مِنْ سَوْءِ بَيْتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا  
مَلَكَئِينَ أَوْ تُكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾  
فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ بَيْتِهِمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا  
مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴿٢٢﴾ (الأعراف: ٢٠-٢٢) .

تلك هي مواضع ورود مرحلة وسوسة الشيطان لآدم وزوجه ، حسداً منه  
وحقداً عليهما على أن بقيا في الجنة وطرد منها .

والذي نلاحظه هنا أمور :

أولاً : أن السورتين المكييتين اتفقتا في التفصيل والتعبير عن إغواء الشيطان  
لهما بالوسوسة ، بينما عبّرت عنه السورة المدنية بالإذلال ، كما جاءت فيها  
المعاني مجملة .

ثانياً : أن التفصيل في كلتا السورتين المكييتين - مع اختصاص الأعراف  
بنصيب وافر فيه - صوراً لنا لقطات هامة هي : الغرض من الوسوسة - أسلوب  
الخداع الذي سلكه اللعين في الإضلال ، وهذا الأسلوب اعتمد على الإغراء

والتأكيد بالقسم - بدو سوءات آدم وحواء - اجتهدهما في سترها بورق الجنة ،  
تأنيب الله لهما على ما بدر منهما ، ومخالفتها نصحه .

ثالثاً : أن البقرة وطه اتفقتا في الإشارة إلى توبه الله عن آدم واجتنبائه له ،  
وانفردت الأعراف بالحديث عن تندمهما ودعائهما ربهما بالمغفرة والرحمة ،  
فكان ما في البقرة وطه من الإشارة إلى التوبة واجتباء الله لآدم استجابة لذلك  
الدعاء الذي انفردت به الأعراف خاصة وأن كلاً من السورتين - طه والبقرة -  
نزلتا بعد الأعراف ، إذ أن الأعراف هي السورة الثانية التي تحدثت عن قصة آدم  
بعد سورة «ص» ، وهذا يفسر لنا سر التفصيل فيها لهذه المرحلة أكثر مما  
ورد في طه ، وهي قسيمتها فيه ..

### ● أمر الله لهم بالهبوط إلى الأرض :

وهذه مرحلة جاءت في بعض المصادر دون بعضها .. ومصادر ورودها هي :

«البقرة» قال سبحانه : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى  
فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا  
بِقَائِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ » (البقرة: ٣٨، ٣٩) .

«الأعراف» قال سبحانه : ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي  
الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا  
تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ » (الأعراف: ٢٤، ٢٥) .

«طه» قال سبحانه : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا  
يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ  
عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿٢١﴾ قَالَ رَبِّ  
لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿٢٢﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا  
وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿٢٣﴾ وَكَذَلِكَ نُجزي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِقَائِنَاتِ رَبِّهِ ۗ  
وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشدُّ وَأَبْقَى ﴿٢٤﴾ » (طه: ١٢٣-١٢٧) .

من التأمل والمقارنة بين هذه النصوص يخرج الباحث بما يأتي :

أولاً : أن الأمر بـ « الهبوط » جاء بصيغة الجمع في البقرة والأعراف لأن المخاطب ثلاثة : آدم وزوجه وإبليس .

وجاء بصيغة التثنية في طه ، ولعل سره أن المأمور بالهبوط فريقان : آدم وزوجه فريق ، وإبليس فريق آخر .

ثانياً : أن الأمر في البقرة وطه قد اقترن ضمير المخاطب فيه بالتوكيد بلفظ : « جميعاً » ولم يرد ذلك في الأعراف .

ثالثاً : أن التصريح بـ « ثبوت العداوة بينهم » أمر مشترك بين الأعراف وطه ، أما آية البقرة هنا فقد خلت منه ، لأنها جاءت تأكيداً بالهبوط للآية التي قبلها ، وفيها صرّح الله بثبوت تلك العداوة ، فاكتفى بها .

رابعاً : أن ترقب هدى الله قد صرّح به في كل من البقرة وطه .. ولم يأت في الأعراف إطلاقاً .

خامساً : أن بيان أن « من اتبع الهدى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، أو « فلا يضل ولا يشقى » من خصائص سورتي البقرة وطه مع اختصاص طه بشيء من التفصيل إذا ما قورنت بالبقرة ، هذا البيان لم يرد في الأعراف ، لأنه تابع لترقب الهدى الذي لم يرد فيها كما مرّ .

سادساً : التصريح بـ « الاستقرار في الأرض والتمتع فيها إلى حين » من خصائص سورتي البقرة والأعراف ، فيما تقدم عن هذه الآية ، والأعراف في الآية المذكورة مع اختصاص الأعراف بشرح تفصيلي لأدوار سنة الله التي سيخضعون لها في الأرض قال : ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٥) .

ولكل من هذه الفروق دواع ومقتضيات يطول بنا الحديث لو تتبعناها ، على أن هناك فروقاً دقيقة بين الألفاظ المتقابلة في هذه المواضع ، نضرب مثلاً بواحد منها .

فقد جاء في البقرة : ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ ﴾ (البقرة: ٣٨) .

وجاء في طه : ﴿ فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ ﴾ (طه: ١٢٣).

الفعل « تبع » مخفف في البقرة ومُشدَّد في طه ، يقول جماعة : « إن تشديد الاتباع لسبق التصريح بمعصية آدم ، وقد سبقه أيضاً الاتباع مشدداً في نفس السورة في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ (طه: ١٠٨)<sup>(١)</sup> ، وفي توجيه التشديد وعدمه آراء أخر لعل هذا أقواها .

وتوجيه آخر أراه حرياً بالقبول ، هو أن القرآن في مكة كان يتجه كثيراً نحو القوة والعنف لغلظة القوم وتماديهم في الضلال ، بخلاف المدني الذي كان يميل إلى الهدوء والشرح والتفصيل .

هذه آخر مرحلة يتحدث عنها العهد المكي - مرحلة الهبوط من الجنة والاستقرار في الأرض - وقد اشترك العهد المدني معه في بيان هذه المراحل مع الفروق التي لحظناها بين النصوص جميعاً .

لكن بقي هناك شيء هام ، وهام جداً لم ترد إليه إشارة واحدة في العهد المكي ، وإنما استأثر به العهد المدني ، شيء هام تكاد حكاية القصة في المدينة تختلف به عن حكايتها في مكة اختلافاً أساسياً ، أن العهد المدني قد أضاف جديداً إلى هذه القصة .. فما هو ذلك الجديد ؟

### ● الجديد في القصة في العهد المدني :

إن الجديد الذي ورد في العهد المدني عناصر بارزة في القصة أرجأها الله تعالى فلم ترد في المكي ، وهي تتمثل فيما يلي :

أولاً : جاء فيه أنه قال للملائكة : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠) ، ولم يقل لهم كما قال في المكي : ﴿ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴾ (ص: ٧١) - مثلاً - كما في سورة « ص » .

(١) المناهج الجديدة في تفسير آيات الله المجيدة ص ٧٩ - الدكتور عبد الغني الراجحي .

وجعل آدم خليفة مرحلة أرقى من خلقه ولاحقة به في الوجود .

ثانياً : جاء فيه أن الملائكة تعجبوا من هذا الجعل وبنوا تعجبهم على وصفين في المجموع ، ووصفين فيهم .

أما الوصفان اللذان في المجموع : فكونه مفسداً في الأرض وسافكاً للدماء .

وأما الوصفان اللذان فيهم : فكونهم مسبحين بحمد الله ومقدسين له .

فردَّ الله عليهم بأنه يعلم ما لا يعلمون .

ثالثاً : وجاء فيه تعليم الله آدم الأسماء كلها ومسمياتها وأعدّه بذلك لمباراة

بينه وبين الملائكة ليتحقق له الانتصار عليهم .

رابعاً : وجاء فيه أن الله عرض المسميات على الملائكة وطلب منهم أن

ينبئوه بها فلم يستطيعوا وفوضوا الأمر إلى الله مسبحين له .

خامساً : وجاء فيه أن الله أمر آدم أن ينبئهم بالأسماء ففعل ، فلما أنبأهم

بأسمائهم قال الله لهم : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ

مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٣) .

وأول ما يلاحظه الباحث - هنا - أن نص السورة (البقرة) حين اشتمل على

معان جديدة لم ترد في غيره قبلاً ، كما وضحناها آنفاً ، واشتمل على معان

تحدثت عنها السور المكية ، فإنه في بناء القصة في المدينة قدم القرآن المعاني

الجديدة ، وبعد الفراغ منها ساق المعاني التي وردت في العهد المكي ، وبذلك

اكتمل بناء القصة ، ولم يعد فيها موضع لإضافة جديدة .

في المدني كانت عبارة : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠) بديلاً

عن عبارة : ﴿ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا ﴾ (ص: ٧١) .

لأن العهد المكي كان عهد تكوين في كل شيء .. تكوين للعقيدة الصالحة ،

تكوين للأخلاق الإنسانية الفاضلة ، تكوين لجماعة تؤمن بالحق وترفض

الباطل ، فناسبه من قصة آدم عليه السلام مراحل التكوين الأولى ، مراحل

الخلق والإيجاد من الطين أو الصلصال والحمأ المسنون .

أما «الجعل» فمناسب للعهد المدني لأنه طور لاحق للإيجاد والخلق ، ولأن مفعوله خليفة ، والخلافة مجعولة لآدم متنقلة في ذريته جيلاً بعد جيل لأن في الجعل معنى التحويل من شيء إلى شيء .

قال العلامة العمادي<sup>(١)</sup> في تفسير أول سورة الأنعام :

«والجعل هو الإنشاء والإبداء كالخلق ، خلا إنه مختص بالإنشاء التكويني وفيه معنى التقدير والتسوية ، وهذا عام له كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (الأنعام: ١) ، وللتشريعي كما في قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ نَجْدٍ وَلَا سَابِغَةٍ وَلَا وَصِيْلَةٍ وَلَا حَامِرٍ ﴾ (المائدة: ١٠٣) . وأياً ما كان فهو إنباء عن ملابسة مفعوله بشيء آخر يكون فيه أو له أو منه .

فالخلق لا يُطلق إلا على الإيجاد والإبداع ، أما الجعل فقد يُستعمل في معنى الخلق ، وقد يفارق ذلك المعنى إلى معان أخرى كما ذكره العمادي ، ولذلك وضع بإزاء الخلافة لأن الخلافة مجعولة لا مخلوقة .

ومن ملائمتها القصة في البقرة للعهد المدني أن اليهود كانوا في المدينة وهم أهل كتاب ، ولهم بماضي الأمم وحقائق الخلق دراية ، فجاءهم القرآن بتفاصيل دقيقة من جعل الخلافة لآدم ، ومحاورة الملائكة ربهم ، وتعليم آدم الأسماء ، وعجز الملائكة عن التنبؤ بها ، وتحقيق ذلك لآدم .

ومن تلك الملائمة أيضاً قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٣) .

فهذه العبارة تؤدي إلى جانب المقصود منها معنى آخر هو تهديد ظاهرة النفاق التي جدت في المدينة ولم تعرف عنها مكة شيئاً .

فيها تهديد لهم بكشف أسرارهم وإظهار خفياهم لأن النفاق يقوم على كتمان الكفر وإظهار الإيمان والطاعة .

(١) هو العلامة أبو السعود صاحب التفسير المشهور بـ «إرشاد العقل السليم» .

## ● ملاحظة مهمة أخرى :

ومن الملاحظات الهامة في نصوص القصة كلها في جميع مصادرها أن بعض المعاني تُذكر مع بعض معين ، فإذا لم يُذكر ذلك البعض المعين لم يذكر - كذلك - ما جرى المنهج القرآني على ذكره معه .

فسؤال الله إبليس عن عدم السجود يُذكر معه بعد اعتذاره طلب إبليس من ربه أن يجعله من المنظرين ، ويُذكر معه - كذلك - إعلان إبليس تصديه لإضلال الناس إلا عباد الله المخلصين .

وهذا المعنى جاء في كل من سورة «ص» - والحجر - والإسراء . ولم يرد في هذه السور الثلاث الأمر لهم بالهبوط من الجنة إلى الأرض .  
وإذا ذُكر الهبوط من الجنة إلى الأرض ، ذُكر معه ترقب الهدى ، فمن اتبعه هداه إلى الحق ، ومن خالفه هلك .

وقد ذُكر هذا المعنى في سورتي البقرة وطه ، ولم يخالف هذا المنهج إلا في الأعراف حيث ذُكر فيها الهبوط . ولم يُذكر ترقب الهدى ، ولعل السر في ذلك أن طه نزلت بعد الأعراف مباشرة فأرجى ذلك إليها .  
كذلك فإن إعلان توبة الله على آدم عليه السلام قرينة ذكر الهدى وترقبه ذلك في البقرة وطه .

إن المنهج القرآني يسير على اعتبارات دقيقة في بناء القصة واتلاف أجزائها ، وتظهر هذه الجوانب الحكيمة كلما أطال الباحث النظر في نصوصه وقارن ودرس واستنتج .

وفوق هذه العناصر المشتركة بين كل النصوص ، ثم المشتركة بين مجموعة دون أخرى نجد لكل نص ملامح خاصة لم تأت فيما عداه ، فما هي إذن ؟

## ● الملامح الخاصة بكل مصدر من مصادر قصة آدم :

نضرب مثلاً ، ولا نستقصي ، وليكن ذلك بحسب وضع السور في المصحف ، ولنبدأ بسورة البقرة .

إن العهد بهذه السورة ليس ببعيد ، إذ يكاد ما جاء بها يكون ملامح خاصة لها .. فليس فيها مكرر سوى أمر السجود والهبوط وترقب الهدى ، وما عدا ذلك فخاص بها .

والأعراف : اختُصت فيما اختُصت به بذكر تدمر آدم وحواء ودعائهما الله بالمغفرة والرحمة وإلا كانا من الخاسرين .

والحِجْر : اختُصت بذكر الصلصال والحمأ المسنون ، وبذكر السبعة الأبواب للنار وأن لكل باب جزءاً مقسوماً .

والإسراء : اختُصت بوضع مقولة إبليس موضع إياته السجود ، وبالتصريح بحقده على آدم : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْت عَلَيَّ ﴾ (الإسراء: ٦٢) وبالإمداد له في الضلال ، وأن يجلب عليهم بخيله ورجله ، وأن يشاركهم في الأموال والأولاد ، وأن وعده لهم ما هو إلا غرور .

والكهف : اختُصت بوصف إبليس بأنه كان من الجن وأنه فسق عن أمر ربه ، ويانكار أن يتخذ هو وذريته أولياء من دون الله .

وطه : اختُصت بإجمال جامع ورد على وجه التمهيد للقصة : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ (طه: ١١٥) .

وبتفصيل النعيم الذي سيلقاه آدم وحواء في الجنة ، وبأن الله اجتبى آدم وهداه .

وسورة « ص » : اختُصت بقوله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (ص: ٧٥) ... إلى غير هذه الأمور يطول بنا الحديث لو تتبعناها جزئية جزئية ، وكم في هذه النصوص من الحكيم والأسرار ؟

● لماذا اختلفت أساليب الحكاية والمحكى عنه واحد :

هذا سؤال نعيده مرة أخرى بعد أن أشرنا إليه في مدخل البحث ، فما جوابه

إذن ؟

## ● الجواب :

أولاً : أن الاختلاف راجع في الأغلب إلى اختلاف الأحوال ، ففي كل عبارة جاءت على نهج معين رعاية ومناسبة لمقام الحديث ، ويتصل بهذا المظهر من مظاهر التحدي حيث يكون المعنى الأصل واحداً ، وتحدث بتكراره زيادات ومعان ثانية لم يزد بها إلا حلاوة وطلاوة .

على خلاف المعهود في بلاغة الناس ، فإن التكرار فيه يُعَرِّضُه للقوة والضعف والتهافت وإن وُقِّقَ في موضع خُذِلَ وسقط في موضع آخر .

ثانياً : الفروق اللفظية التي يجيء عليها المكرر عندما نبحث عن أسرارها يتجلى لنا بوضوح لماذا أثر القرآن لفظاً على لفظ ، وأسلوباً على أسلوب مما يؤدي في النهاية إلى الإقرار اليقيني بإعجاز القرآن .

ثالثاً : يقول الإمام البقاعي في تفسيره سورة البقرة : « إن المقصود من حكاية القصص في القرآن إنما هي المعاني ، فلا يضر اختلاف اللفظ إذا أدى جميعها ولم يكن هناك تناقض ، فإنها كانت حين وقوعها بأوفى المعاني ، ثم إن الله تعالى يُعَبِّرُ لنا في كل سورة يذكر القصة فيها بالألفاظ المناسبة للمعاني ، وي طرح ما لا يقتضيه المقام »<sup>(١)</sup> .

## ● خلاصة :

ذلك هو جانب التكرار في القرآن الكريم ، فليات قصاصو العالم بأدب مثله ، وليرنا الطاعنون أين موضع العيب فيما جاء في القرآن مكرراً ؟ وإلا فكفى لغواً .

فإن كانوا مكابرين قلنا لهم :

كَنَاطِحَ صَخْرَةٍ يَوْمًا لِيُوهِنَهَا      فَلَمْ يَضُرَّهَا . وَأَوْهَى قَرْنَهُ النَّوْعِلُ

وإن كانوا ضالين قلنا لهم :

وَإِذَا كُنْتَ لَمْ تَرَ الْهَيْلَالَ فَسَلِّمْ      لِأَنْتَ سِ رَأُوهُ بِالْأَبْصَارِ

\* \* \*

(١) المناهج الجديدة في تفسير آيات الله المجيدة ص ٣٩ - الدكتور عبد الغني الراجحي .